مجلة
كلية الآداب

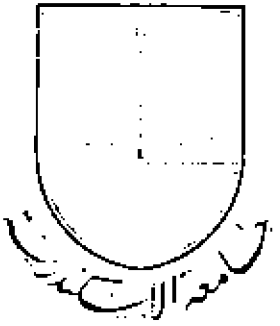

المجلد السادس عشر

١٩٦٢

تنشر هذه المجلة من ميزانية كلية الآداب بجامعة الإسكندرية
وتشمل ، وتوزع للمكتبات العامة المناظرة مجانية إلى
هيئة تحرير المجلة

مطبعة جامعة الأسكندرية
١٩٦٢

هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور محمد ثابت الفندى ... ... (عميد كلية الآداب)

الأستاذ الدكتور محمد عبد المعز نصر ... ... (وكيل كلية الآداب)

الأستاذة الدكتورة نور شريف ... ... (أستاذة اللغة الانجليزية وآدابها)

فهرس

مقدمة

فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية
للدكتور محمد رشيد عبد الحميد ١

قرطاجنة الشام
للدكتور أحمد عبد العزيز ٣٥

اختلاف العراقيين والمدنيين في تقدير الصاع النبوي
للدكتور عبد محمد الحسيني ١٢٩

الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية
للدكتور جمال عبد الهادي ١٨٣

حمامات الإسكندرية الرومانية
للدكتور فوزي عبد الرحمن ٢٠٣

النقرة : أصولها وتطورها
للدكتور كامل الشربي ٢٠٣

تاريخ بناء القرويين
للدكتور عبد الهادي التازي ٢٠٠

مساجد القاهرة ومدارسها
عرض وتعريف للدكتور مصطفى زيادة ٢٠٧

وعاء الغور والعوامل التي ساعدت على اصداره
للدكتور محمد خميس الزوكة ٢٠٣

فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية

دراسة ونقد لمخطوط « فتوح مدينة إفريقية »
من مخطوطات الواقدى بالمتحف البريطانى

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد

ما زالت قصة الفتح العربى للمغرب بحاجة الى المزيد من البحث والدراسة أو بالأحرى بحاجة الى ظهور المزيد من المعلومات الأكيدة أو الوثائق الجديدة . فالغموض يكتنف كثيراً من جوانبها ، والفراغ والثغرات تقطع كثيراً من أوصالها ، وفوق هذا وذاك عمرت الأسطورة والخرافة أطرافها من بدايتها الى نهايتها . وهذا الأمر ليس غريباً بالنسبة لتاريخ الفترة الأولى من صدر الدولة الاسلامية على العموم . فأخبار هذا العصر كانت تتداول — فى البداية — شفاها . والرواية الشفوية عرضة للتحوير والتغيير ، وخاصة اذا بقيت مدة طويلة دون تسجيل . وهذا التحوير والتغيير قد يتناول قدراً ضئيلا من الخبر الذى يظل محتفظاً بكيانه وجوهره ، وقد يتناول الخبر جميعه فيمسخه ويبدله وهنا ينتهى الأمر — مع مرور الوقت — الى أحد نقيضين : اما أن تنقلب الحقيقة التاريخية الى أسطورة ، وإما أن تتحول الخرافة الى حقيقة تاريخية .

والعوامل التى تؤدى الى التغيير الضئيل فى الخبر أو المسخ الشامل له كثيرة . أولها حتمى صادر من طبيعة الرواية الشفوية اذ يصعب ضبطها والتحكم فى صحة دقائقها عندما تنتقل من راو الى آخر . وثانيها أنانى قبلى نابع من طبيعة تنظيم العرب القبلى — حينذاك — اذ تأخذ كل جماعة بالرواية التى ترضى نزعتها العصبية أو نعرتها القبلية بل وتغير فيها حتى تلائم منزعها هذا .

وثالثها سياسى يظهر بعد انتهاء فترة التكتل الأولى ، وقيام الفتنة بين العرب ، وظهور الفرق والمذاهب التى زادت فى التفتيت وأشعلت لهيب الخصومة بين الأطراف المتنازعة ، مما جعل كل فريق يبحث عن الأسانيد التى يؤكد بها أطماعه السياسية ، ويخترع لنفسه الأمجاد والمفاخر ، وينسب الى خصومه الصغائر والمخازى . وذهب البعض فى هذا السبيل الى حد انتحال الأحاديث النبوية — كما نعرف . وأما رابعها فعاطفى أو انسانى يرجع الى الوضع الجديد الذى وجد العرب أنفسهم فيه بعد أن تحققت تلك الفتوح الكبرى فى ذلك الوقت القصير اذ استبدلوا ببلادهم الفقيرة البخيلة أقطاراً غنية كريمة ، وسكنوا المدن العظمى بعد أن كان كثير منهم لايعرف الا قرى الحجاز أو واحات نجد ، وخالطوا شعوبا وجماعات تعيش عيشة مدنية تختلف تمام الاختلاف عن حياة البادية ، وتمارس عادات وتقاليد لا يفهمها أهل الصحراء . كل هذا كان يثير — بطبيعة الحال — مشاعر القوم واحساساتهم ويطلق العنان لخيال كتابهم الخصب وتصوراتهم الجامحة .

هكذا ظهرت الأسطورة فى تاريخ الفترة الأولى للدولة الاسلام فى المشرق وفى المغرب على السواء . وسجلها الكتاب عندما بدأ التدوين ، وأصبحت شيئا تقليديا لا تخلو منه كتب المتأخرين حتى أولئك الذين عرفوا النقد التاريخى واعتنوا بصحة الأخبار . وبلغ الأمر الى أن اعتنى عدد من الكتاب بالغرائب والعجائب فكرسوا لها المصنفات . ولهذا نجد المؤرخ الحديث صعوبة كبيرة فى نقده للمراجع من وجهين : أولهما عندما يحاول التفرقة بين الأسطورة وبين الحقيقة التاريخية ، وثانيهما عندما يحاول نقد الاخبار ذات الطابع التاريخى العلمى ، والتى كثيراً ما تتضارب فى تفصيلاتها مثل الاختلاف فى توقيت الأحداث الهامة : كالوقائع أو تأسيس العواصم المشهورة . ونكتفى هنا بالاشارة الى الاختلاف فى تحديد تاريخ وقعة القادسية

الفاصلة (١) أو وقعة أجنادين أو اليرموك (٢) وكذلك ما يروى عن فتح مصر وهل تم بعلم الخليفة أو بغير علمه (٣) . وتظهر هذه الصعوبات بوضوح فى التأريخ لعصر الفتوح العربية فى المغرب الذى يشغل القرن الهجرى الأول تقريباً ، وهو موضوع بحثنا .

والمؤرخ ينزع عادة الى أحد منهجين : اما أن يضرب صفحا عن الروايات ذات الطابع الخرافى فيهملها ولا يصبح أمامه الا مهمة نقد الروايات التاريخية وترتيبها ، واما أن يهتم بالجانبين جميعاً فيحاول أيضاً نقد الأسطورة وردها الى أصلها التاريخى — ان كان لها أصل تاريخى . وهنا تصبح مهمته شاقة عسيرة ، وطريقه مليئة بالعقبات والمزالق . ولقد أشار الأستاذ ليفى بروفنسال فى دراسته لأحد النصوص التى عثر عليها والتى تعالج فتوح العرب فى المغرب فى القرن الأول الهجرى الى الصعوبات التى يعانيها المؤرخ نتيجة لنقص المعلومات وتضاربها ثم لميلها الى الخرافة فى كثير من الأحيان (٤). وأشاد بروفنسال ببعض الدراسات التى قام بها عدد من العلماء الفرنسيين

---

(١) أنظر المسعودى ، مروج الذهب (طبعة التجارية ١٣٦٧/١٩٤٨) ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ حيث يعرض اختلافات الرواة فى أمر القادسية : فالمدائنى (توفى ٢٥٥ هـ/٨٣٩ م) يقول أنه فى سنة ١٤ هـ ، وابن اسحق (توفى ١٥١/٧٦٨) يقول انها فى سنة ١٥ هـ ، والواقدى (ت ٢٠٧ ٨٢٣) يقول انها فى سنة ١٦ هـ . ونشأ عن ذلك الاختلاف فى تحديد وقت بناء البصرة والكوفة اللتين بنيتا عقب القادسية .

(٢) بلغ الاختلاف فى توقيت اجنادين واليرموك الى حد أن الكتاب لايتفقون على أيهما وقعت قبل الأخرى : انظر ابن خلدون ، طبعة فاس ، ج ٢ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ حيث يرجح رواية سيف بن عمر (توفى ١٧٠ هـ/٧٨٦) التى أخذ بها الطبرى والتى تجعل اليرموك سنة ١٣ هـ ثم يشير الى رواية الواقدى التى تقول ان اليرموك كانت سنة ١٥ هـ . وبين ابن خلدون (ج ٢ ص ٣٣٦) اختلاف الكتاب فى اجنادين واليرموك أيهما قبل الأخرى ، وازاء الاختلاف هذا اضطر الى أن يرتب الأحداث حسب القولين جميعاً .

(٣) انظر ابن عبد الحكم (طبعة ليدن) ، ص ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ، البلاذرى ، طبعة ليدن ص ٢١٢ حيث يقول « وقضى (عمرو) الى مصر من تلقاء نفسه فى ثلاثة آلاف وخسمائة فغضب عمر لذلك ..»

(٤) أنظر صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، المجلد الثانى ، ١٩٥٤ ، ص ١٩٣ .

الذين اهتموا بتاريخ المغرب مثل وليم مارسيه (Marçais) وجورج مارسيه وبرونشفيج (Brunchvig) وجاتو (Gateau) كما أشار الى المقدمة التاريخية الخاصة بفتح المغرب في كتاب رياض النفوس الذى حققه الدكتور حسين مؤنس . ويخلص بروفنسال الى أنه من الصعب كتابة تاريخ فتح العرب للمغرب بالتفصيل ، وأن بعض الكتابات القيمة هى التى حددت معالم هذه الفترة على وجه الاجمال أو عالجت بعض النقاط فقط (١) . وربما كان هذا الرأى صحيحاً الى حد كبير اذ هو ينطبق عندنا على بحث الدكتور حسين مؤنس عن « فتح العرب للمغرب » فقد تعرض مؤنس للموضوع بشكل مستفيض ، ونظر فى مراجعه ، وحاول نقد كل الروايات ونجح فى ذلك ولكن اندثرت الخطوط العريضة للموضوع وسط سيل التفصيلات التى تتناقض فى كثير الأحيان (٢) . وعلى العكس من ذلك ظهرت هذه الخطوط واضحة جلية عندما لخص هذا البحث فى صفحات قليلة جعلها مقدمة لفتح الأندلس فى كتابه عن « فجر الأندلس » (٣).

ونريد أن نخرج من هذا بالتماس العذر للدكتور حسن أحمد محمود الذى تعرض فى بحثه القيم عن « قيام دولة المرابطين » للفتح العربى للمغرب فوقع فى حيرة أمام اختلاف الروايات فروى ما يفهم منه أن عقبة بن نافع استشهد فى المغرب الأقصى اذ يقول بعد مقتله : «وزحف كسيلة الى الشرق متجاوزا المغرب الأقصى وانقض على افريقية » (٤) . ومنها الحيرة فى ترتيب المراحل الكبيرة للفتح ، والحيرة أمام اختلاف الروايات عن أعمال كبار القادة : فهو يقدم حسان بن النعمان على زهير بن قيس البلوى ، وينسب اليه أنه « لم يستطع أن يهزم كسيلة نهائياً ، انما أقصاه عن القيروان » . وهو لا يذكر ما كان من أمر حسان

---

(١) أنظر صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، المجلد الثانى ، ١٩٥٤ ، ص ١٩٤ - ١٩٥

(٢) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧

(٣) أنظر حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٤ — ٤٩

(٤) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٦٣

والكاهنة (١) . ثم يقول بعد ذلك ان زهيراً قتل كسيلة عند ممس ، ولكنه يذكر أن « العرب أمعنوا فى تعقب البربر المهزومين حتى وادى ملوية بل أوغلوا حتى طنجة » (٢) . والمعروف أن زهيرا عاد ادراجه نحو المشرق بعد قتله لكسيلة وأنه استشهد على سواحل برقة (٣) . والسبب فيما وقع فيه الدكتور حسن محمود هو أنه أخذ من بعض المصادر المهمة — رغم أنها متأخرة بعض الشيء — مثل بيان ابن عذارى ورياض المالكى التى يذكرها فى الهوامش، ولكن دون أن يقابلها ببعضها البعض أو يعرضها للنقد . والحقيقة أن الرجوع مباشرة الى مصادر فتح المغرب — ولانستثنى من ذلك أمهات هذه المصادر مثل كتاب ابن عبد الحكم الذى يقدم حسان بن النعمان فى بعض أبوابه على زهير بن قيس (٤) — دون الاستفادة من الدراسات النقدية الحديثة يعتبر مغامرة قد لا تحمد مغبتها : وذلك للاسباب التى ذكرناها ابتداء من نقص المعلومات وتضاربها وكثرة الأساطير .

وهذه الأسباب هى التى جعلتنا نختار « فتح المغرب بين الأسطورة والحقيقة التاريخية » موضوعا لهذا البحث . أما عن مادة البحث الأولى فمخطوط اطلعنا عليه بالمتحف البريطانى يحمل عنوان « فتوح مدينة افريقية » ولا يحمل اسم المؤلف وهو منسوب فى فهرس المتحف (القسم العربى ، رقم Add.9572) للواقدى . وهذه النسخة ليست وحيدة فهناك نسخ أخرى يذكرها بروكلمان فى مكتبات ليدن وباريز وكامبريدج والجزائر وفاس (٥) . وأكثر من ذلك أن « فتوح أفريقية » هذه طبعت فى تونس منذ حوالى

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢٢٨ ، بروفنسال ، صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، ٩٥٤ ، ص ٢١١ والهامش .

(٤) انظر ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٢ حيث يروى قصة مقتل زهير بن قيس فى انطابلس (برقة) بعد أن روى من قبل قصة انتصارات حسان على الكاهنة (ص ٢٠٠ — ٢٠١) . وهو يحدد مقتل زهير على هذا الأساس بسنة ٧٦ هـ (ص ٢٠٣) أى أيام حسان بن النعمان .

(٥) أنظر : Brockelmann, G. A. L., supp. I p. 208 .

خمسة وستين عاما (١٣١٥ هـ) بمعرفة عبد الرحمن الصنادلى تحت عنوان « فتوح افريقية للامام العلامة الحبر الفهامة سيدى محمد الواقدى رحمه الله تعالى » . وطبعة تونس هذه فى جزءين كل منها فى حوالى ١٥٠ صفحة ، والمخطوط يعادل الجزء الأول منها . وهذه الطبعة نادرة الآن فهى لا توجد فى دار الكتب أو فى مكتبة جامعة القاهرة ، وعلى ذلك يمكن القول إنها أشبه بالمخطوط . وهى فى الحقيقة كذلك : فناشرها لا يذكر الأصل الذى نقل عنه كما أنه لا يحققها ولا يزودها بمقدمة من عنده ولا بالهوامش اللازمة حتى ظلت بكراً على حالتها الأولى . ونحن نلتمس العذر للصنادلى فتحقيق مثل هذا المخطوط أمر صعب ان لم يكن مستحيلا ، وذلك أن القصص والأساطير تغلب فيه على التاريخ الحقيقى . وربما كان هذا هو السبب الذى دعا المهتمين بتاريخ المغرب من المستشرقين والعرب الى اهمال هذا الكتاب اهمالا تاماً ، فلم يشيروا اليه فى تقدمهم للمصادر بل ولم يذكروه فيما ذيلوا به أبحاثهم من ثبت للمراجع . فدوزى وبروفنسال وماوسيه وبرونشفج ومؤنس وغيرهم لا يذكرونه فى المراجع وإن كان مؤنس يشير اليه فى فصل المصادر عندما ينقد النويرى (ص ٣١٠) وفى أحد الهوامش الخاصة بحملة ابن أبى سرح (ص ٩٠ هامش ٣) . وهذا يدعونا الى التساؤل عما اذا كانوا يعرفونه أم لا . ونظن أن بعضهم على الأقل كان يعرف « فتوح افريقية » ، ويجوز أن طبيعة الرواية الأسطورية وصعوبة تحقيقها هى التى زهدتهم فى التعرض له .

ونحن لا ندعى أننا سنحقق الكتاب — فهذا أمر صعب — ولكننا سنحاول أن نتعرض له بالدراسة والنقد فى محاولة تهدف الى تبيان أصوله التاريخية ، وكيف تحولت الحقائق التاريخية فى هذه الرواية الى أساطير أو العكس . وتحديد عملنا بهذا الشكل يفسر كيف أننا اقتصرنا على دراسة مخطوط المتحف البريطانى مع مقابلته بطبعة تونس . ولكننا لم نكتف بهذا التحديد اذ لما كان فتح المغرب استمرارا لفتح مصر فقد رأينا أن نتعرض لفتح مصر للواقدى وهو القسم الثانى من مخطوط « فتوح الشام ومصر » بالمتحف البريطانى أيضاً (القسم العربى رقم Add. 7361) وهذا القسم نشر سنة ١٨٢٥ فى ليدن بمعرفة هنريك آرند همقرتحت عنوان « كتاب فتوح مصر والاسكندرية

المنسوب الى المؤلف الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدى المدنى » . وطبعه ليدن أكثر تفصيلا من مخطوط المتحف البريطانى ، وينطبق عليها ما قلناه على طبعة « فتوح افريقية » من حيث الندرة وبقاء النص على حالته الأولى كالمخطوط تماما . هذا ونظرنا فى « فتح البهنسة وفيوم من أرض مصر » للواقدى كذلك ، وهو مخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن ، وملحق بمخطوط لتاريخ أبى النعدا (القسم العربى رقم ٢٦٣٨٦) . ولقد طبع هذا الكتاب سنة ١٢٨٠ هـ بالقاهرة تحت عنوان « فتوح البهنسا وما فيها من العجائب والغرائب وما وقع فيها للصحابة » بمعرفة حسين الخشاب . ويذكر أنه للشيخ محمد بن المعز . والظاهر أن صحة الاسم الاخير هذا هو « محمد بن محمد المقرى » كما هو مذكور فى المخطوط (١) . ونظن أنه واقدى آخر غير صاحب المغازى اذ يلقبه المصنف أو الناسخ « بالواقدى المحدث المصرى » (٢) كما فى المطبوع أيضاً (٣) . والمطبوع هنا لا يختلف عن المخطوط من حيث عدم التحقيق وبقاء النص دون نقد أو تعريف .

والحقيقة أن القرابة قريبة بين المخطوطات والكتب الثلاث كما سنرى . وسنشير الى فتوح الأندلس التى هى استمرار لفتوح المغرب ، ونكتفى بذكر عنوان كتاب ابن عبد الحكم « فتوح مصر والمغرب والأندلس » للتدليل على ما بين قصة فتوح البلدان الثلاثة من علاقة وثيقة .

ورواية ابن عبد الحكم (توفى فى مصر سنة ٢٥٧ / ٨٧١) هى أقدم رواية كاملة وصلت الينا عن فتح المغرب . . وهى تمثل الرواية الشرقية لقصة الفتح رغم أن ابن عبد الحكم مصرى ، ومصر كانت قاعدة فتح المغرب كما كانت عاصمته عقب الفتح . وكانت القسطاط تذخر بالرسائل

---

(١) فتح البهنسة وفيوم ، مخطوط مدرسة الدراسات الشرقية بلندن ، القسم العربى ٢٦٣٨٦ ص ١٠٢ ، وانظر : Brockelmann, G. A. L., I, P. 142

(٢) نفس المخطوط ، ص ١٠٨ .

(٣) فتوح البهنسا وما فيها من العجائب ، طبعة ١٢٨٠ هـ ، ص ١٩ وتابع .

والسجلات الرسمية الخاصة بفتح مصر والمغرب . فنقل بن عبد الحكم عن كثير من المشايخ الذين رأوا هذه السجلات أو نسخوها قبل احتراق ديوان القسطاط (١) . والى جانب ذلك دون بعض المعلومات المأخوذة من الروايات الشعبية التى تداولها أهل مصر . وعلى الجملة كان ابن عبد الحكم .. بفضل أسرته التى شاركت فى أحداث مصر مشاركة فعلية — فى موقف يسمح له بالكتابة المفصلة عن فتح مصر والمغرب والاندلس ، وعن الخطط والتنظيم الادارى فى مصر ، بشكل لم يسبقه اليه أحد من الكتاب . وهو هنا له حق الأولوية على المقريزى صاحب الخطط .

والواقدى أقدم من ابن عبد الحكم بحوالى جيلين (توفى ببغداد سنة ٢٠٦ / ٨٢١) ، وله عدد من المؤلفات فى الفتوح والمغازى مثل مغازى الرسول ، وفتوح الشام ، وفتوح مصر ، وفتوح افريقية .. الخ .. وعلى ذلك يمكن اعتباره ممثل ذلك النوع من الأدب التاريخى الذى بدأه ابن إسحق (توفى ١٥١ / ٧٦٨) صاحب السيرة . ولكن مؤلفات الواقدى لم تصل الينا جميعاً ، والذى تثبت نسبته اليه هى «مغازى الرسول» بينما يشك فى أن تكون «فتوح الشام» له . وما عدا ذلك مما وصل الينا مستقلا أو منقولا فى كتب المتأخرين فيشك فى أصالته ، بل وفى صحة نسبته اليه . والى جانب الواقدى وابن عبد الحكم يأتى البلاذرى (توفى سنة ٢٧٩ / ٨٩٢) وهو محدث مؤرخ فى روايته مثلهما .

ويقع مخطوط «فتوح مدينة افريقية» الذى اتخذناه محور البحث فى ٨٦ (ست وثمانين) ورقة من القطع المتوسط (in 4) ، وهو بخط مغربى جميل ، مكتوب بالحبر الأسود بينما العنوان والكلمات الواقعة فى أوائل الجمل مكتوبة بالحبر الأحمر . وتبدأ خطية الكتاب هكذا :

---

(١) إبن عبد الحكم ، ص ١٨٩ . ويلاحظ هنا أن طبعة ليدن تقول : «ذكر بعض المشايخ المتقدمين أنه نظر فى بعض الدواوين بالقسطاط وقرأه قبل أن يحترق فاذا هو يحفظ منه ..» فاثبت الناشر كلمة يحترق بدلا من يحرق التى قرأناها فى مخطوط المتحف البريطانى (القسم العربى، رقم (Stouc. or . 6.) ، ص ٧٢ وجه . هذا واثبت الناشر أن مخطوط ليدن يحمل كلمة يحرق ولكنه لم يقرأها يحرق) .

« الحمد لله المنعم فضلا من عنده ـ المحسن بما لايحصا .. أما بعد نحمد (حمد ؟) الله على فضله والصلوة والسلام على سيدنا محمد ، فانى قصدت فى هذا المختصر [وجه الله] ؟ والبركة بفضل الله وحسن عونه ، فتوح افريقية من المدية (المهدية ؟) الى أقصا المغرب ـ انشاء الله تعالى ـ مما استفتحه أبناء أولدهم (أولادهم ونظن أن المقصود الصحابة ؟) ـ رضى الله عنهم أجمعين فى زمان عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ، وأمر عليهم عقبة بن عامر صحب (صاحب) رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ... »

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ورضى الله تعالى عنه ـ : لما خرج عقبه بن عامر (١) ... الخ . وينتهى الكتاب هكذا :

« انتهى كتب (كتاب) الغزوات . اللاهم (اللهم) بجاه أهله (بجاهك ؟) وبمحمد الحبيب تمح (تمحو) عن كاتبه السيئات وتضعف (وتضاعف؟) له الحسنت (الحسنات) بحق هذه السدات(السادات) » . وهو لا يحمل تاريخ النسخ ولا اسم الناسخ ، ونظن أنه حديث(٢) .

وتكثر الأخطاء اللغوية والاملائية بالمخطوط ـ كما نرى ـ ؛ والظاهر أن مرجع ذلك الى الناسخ أو النساخ المتعاقبين الذين لم يكونوا متمكنين من اللغة العربية . ويحتوى الكتاب المخطوط على الفصول العشرة الآتية :

---

(١) تختلف خطبة طبعة تونس (ج ١ ص ٢) عن هذه الخطبة فتبدأ هكذا : « الحمد لله المنزه عن النظير والقرين ، المقدس عن الوزير والمعين ، المبرأ عن الزوج والبنات والبنين ... وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له والذى هدانا الى الاسلام والدين ، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله .. الخ ... »

(٢) وتنتهى طبعة تونس (ج ٢ ص ١٤٨) هكذا : « انتهى الحمد لله الذى أيد دينه وبعد فقد تم بعون العناية الالهية طبع فتوح افريقية المنسوب للامام الواقدى أحد الجهابذة الاعلام .. فدونك سفرا أسفرت الكواكب مبانيه وأينعت الحدائق معانيه .. أماط القناع عن محاسن تلك الفتوحات الشريفة وأفاض الاطلاع على عجائب هاتيك الغزوات المنيفة .. وقد كان قبلا لايوجد منه اسمه ولا ينال ناشده رحمه حتى يسر الله له باعانة الأخوان وأصدقاء الخلان ـ لا عدمت غيرتهم الأوطان ـ بجمع ما تشتت من نسخه فى أدانى وأقاصى البلدان .. » (ولكنه لم يذكر النسخ التى استعملها) .

١ - بناء القيروان : ص ٢ وجه – ٢ خلف
(طبعة تونس - ج ١ ص ٣)

٢ – فتح المهدية : ص ٢ خلف – ٢١ وجه
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٣)

٣ – فتح مدينة سوسة : ص ٢١ خلف – ٢٩ وجه
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٢٩)

٤ - فتوح مدينة سبيبة : ص ٢٩ وجه – ٥٩ وجه
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٤١)

٥ – فتوح مدينة شقبنار[ية] : ص ٦٠ خلف – ٦٣ وجه
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٩٠)

٦ – فتوح مدينة حيدرة ؟ : ص ٦٣ خلف – ٦٩ وجه
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٩٦)

٧ – فتوح مدينة قسطيلية (١) : ص ٦٩ وجه – ٧١ خلف
(طبعة تونس ، ج ١ ص ١٠٤)

٨ – فتوح مدينة تبسة (٢) : ص ٧١ خلف – ٧٥ خلف
(طبعة تونس ، ج ١ ص ١٠٦)

٩ – فتوح مدينة قسنطينة(٣) : ص ٥٧ خلف – ٧٧ وجه
(طبعة تونس ، ج ١ ص ١١٤)

١٠ – فتح المعلقة ؟ : ص ٧٧ وجه – ص ٨٦ خلف
(طبعة تونس ، ج ١ ص ١٢٠) .

---

(١) المخطوط : قسطيل ؛ طبعة تونس : قسل .
(٢) المخطوط : تباس .
(٣) المخطوط : قسطينة .

وينبغى أن نسرع بتسجيل أول ملاحظة وهى أن الناظر فى هذا الكتاب ليس بحاجة الى كثير تأمل لكى يقرر أن الصفة العلمية تكاد تنمحى منه : فالاسطورة هى الغالبة عليه ، وهى تحمل فى ثناياها فى كثير من الأحيان نواة حقيقية تاريخية ، أو تعبيراً عن اتجاه سياسى أو فكرى معين ، وقد تكون فى آخر الأمر من ذلك القصص الشعبى (الفلكلور) الذى له مغزاه الخاص . وهذا ما نأمل أن نوضحه فى هذا البحث الى جانب الاشارة الى بعض ما يحتويه الكتاب من النصوص ذات الأهمية العلمية الخالصة .

ومخطوط «فتح البهنسة وفيوم من اقليم مصر» المنسوب للواقدى "المصرى" له أهمية خاصة فى هذا المقام . فهو يبين مرحلة متوسطة من مراحل تطور الخبر التاريخى الى رواية قصصية أو أسطورة شعبية . فالكتاب يذكر — بعد اسم المؤلف وصفة البهنسة وتاريخها القديم (١) — مصادر أخرى لرواياته مثل المسعودى والطبرى والواقدى وابن اسحق وابن هشام وأصحاب السير والتفسير (٢) وابن خاكان (٣) . ثم تبدأ رواية الواقدى « المصرى » متأخرة بعد ذلك ، فيقول :

« انى اطلعت على فتوحات كثيرة فوجدت فيها زيادة ونقصان ، ولكن آخذ ما هو الصدق . وقد قررت فضايل البهنسة فرأيت أن من زار جبانتها تمحى عنه الذنوب ، وتكشف عنه الكروب .. لما فيها من السادات والشهداء ممن باعوا أرواحهم ابتغاء مرضات (مرضاه) الله ، وقتلوا فى سبيله .. قال فخرجت ناويا زيارتها فى بعض الأيام أنا وبعض من الأصحاب (٤) .. فسألنى بعض الأحباب عن سبب فتح مدينة البهنسة لندفع البؤس والأسا . فحرك لذلك خاطرى حتى أسهرت ناظرى ، وطالعت تلك التواريخ والفتوحات حتى انتخبت هذا الكتاب . فهو كالدرة اليتيمة التى لا يعرف لها قيمة ، ترتاض عند سماعه النفوس ، ويزول الهم والعكوس ، ويشجع على الجهاد ، ويعين على اقامة العدل فى البلاد » .

---

(١) المخطوط ، ص ١٠٢ وجه .

(٢) المخطوط ، ص ١٠٤ خلف .

(٣) المخطوط ، ص ١٠٨ خلف .

(٤) هذه الجملة توضح أن مؤلف الكتاب مصرى وأنه سكن البهنسة أو زارها على الأقل . وهذا ما لم يعرف عن الواقدى صاحب المغازى .

وخطبة الواقدى هذه تبين أن الغرض من تأليف الكتاب هو ذكر مناقب البهنسة بذكر أبطال الصحابة وأبنائهم الذين فتحوها فهؤلاء صاروا المثل الأعلى لأهل الورع والتقوى . ولهذا يختم المؤلف الكتاب بقوله إن البهنسة صارت محجة كبار الصوفية من المشرق مثل : بشر الحافى (١) والسرى السقطى (٢) ، ومالك بن دينار (٣) ، والجنيد (٤) ، ومن المغرب مثل : سيدى أبى مدين شعيب (٥) ، وسيدى أبى الحجاج الأقصرى (٦) . فالغاية اذن هى العمل على نشر روح الجهاد ، والحث على اقامة سلطان العدل .

وضع فاتحة الكتاب فى موضعها المتأخر هذا يبين كيف تصرف الناقل فى الكتاب فأضاف اليه ، وربما حذف منه مع احتفاظه بنسبته الى «الواقدى» . والناقل أو صاحب الكتاب فى شكله الجديد لا يذكر اسمه ولا يعرفنا بنفسه .

---

(١) أبو نصر بشر بن الحارث المعروف بالحافى ، المروزى الأصل والمتوفى ببغداد سنة ٢٢٧ هـ ٨٤٢ م . وهو من كبار الصالحين . كان له اتصال بالواقدى وروى عنه (أنظر ابن خلكان ، الواقدى ؛ أنظر طبقات الشعرانى ، طبعة ١٣٤٢ ، بشر الحافى ، ج ١ ص ٦٢) .

(٢) أبو الحسن السرى المفلس السقطى ، خال الجنيد واستاذه . من أشهر أهل الورع ببغداد ومن أصحاب معروف الكرخى . مات ببغداد سنة ٢٥١ هـ/٨٦٥ م . من مبادئه عدم قبول الصدقة (أنظر طبقات الشعرانى ، ج ١ ص ٦٣ – ٦٤) .

(٣) أبو يحيى مالك بن دينار البصرى ، الزاهد المشهور . عرف بالورع وبالزهد وكان يتكسب من كتابة المصاحف ، وكان لا يأكل الا من عمل يده . توفى بالبصرة سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م (ابن خلكان ، مالك بن ابى دينار ، طبقات الشعرانى ، ج ١ ص ٣٢) .

(٤) أبو القاسم الجنيد بن محمد يعرف بالزجاج وبالقواريرى ، أشهر صوفية بغداد ولذلك يلقب بسيد الطائفة . أصله من نهاوند ولكنه ولد ونشأ بالعراق ، وصحب خاله السرى السقطى . توفى ببغداد سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م (طبقات الشعرانى ، ج ١ ص ٧٢) .

(٥) أبو مدين شعيب صوفى المغرب المشهور ، ودفين تلمسان بالجزائر سنة ٥٩٥ / ١١٩٩ (طبقات الشعرانى ، ج ١ ص ١٣٣) .

(٦) أبو الحجاج الأقصرى ، شيخ مدينة الأقصر ودفينها . من أجل أصحاب طريقة سيدى أبى مدين ، وتلميذ سيدى عبد الرزاق الاسكندرى – توفى سنة ٦٤٣ / ١٢٤٥ (طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٣٦) .

وكل ما عرفناه — كما فى الخطبة — أنه كان بالبهنسة مقيما أو زائراً ، وأنه مصرى كما يلقب . والظاهر أنه أعطى نفسه لقب الراوى : فكثير من الأخبار تبدأ بكلمتى « قال الراوى » (١) . ويتأكد ذلك عندما يذكر « قال الراوى » : « أنا ما أخذت فى هذا الفتح الذى لا يجتمع مثله الاعلى قاعدة الصدق » (٢) . هذا رغم ما يظهر « الراوى » فى بعض الأحيان ، وكأنه شخص قديم عاش بعد الفتح بقليل كما نقرأ : « قال الراوى عن زيد بن غانم ، وكان ممن حضر الفتح » (٣) . وهذا يرجع الى حذف بقية الاسناد والاكتفاء بالمتن منسوبا الى راويه الأول .

أما عن « الواقدى » فالى جانب ذكره بصفته المؤلف فى الخطبة ، فان كلمتى « قال الواقدى » لم ترد الا مرات معدودات(٤) . ويتضح من سياق الكلام أن الواقدى المقصود حينئذ هو محمد بن عمر صاحب المغازى ، وليس « الواقدى » المحدث المصرى . والى جانب « الراوى » و « الواقدى » نجد كثيراً من الأخبار مسبوقة برواتها القدماء على طريقة المحدثين وقدامى المؤرخين — دون ذكر المرجع الذى نقل عنه . ومن هؤلاء زيد بن غانم وابن سلمة الانصارى (٥) ، وقيس بن الحارث (٦) . ومنهم عبد الله

---

(١) أنظر المخطوط ص ١٠٣ وجه ، ١١٠ وجه ، ١١٢ خلف ، ١٢٠ وجه ، ١٢١ وجه ١٢٢ وجه ... الخ .

(٢) المخطوط ، ص ١٢١ وجه .

(٣) المخطوط ، ص ١١٢ خلف .

(٤) المخطوط ، ص ١٠٨ خلف ، ١١٤ خلف ، ١٤١ وجه

(٥) محمد بن سلمة بن سلمة .. الأنصارى ، الصحابى المشهور . شهد بدرا واشترك فى فتح مصر . توفى سنة ٤٦/٦٦٦ . وابن عبد الحكم يذكره كثيراً ، ولكنه لايضعه ضمن رواته (فتوح مصر ، طبعة ليدن ، ص ٦٤ ، ٩٣ ، ١٤٦ ، وانظر الاصابة لعسقلانى ، رقم ٧٨٠٦).

(٦) وربما كان المقصود هو قيس بن الحارث بن يزيد بن شبل بن حبان الذى يذكره ابن سعد من الواقدى (الاصابة لعسقلانى ، رقم ٧١٥١) وربما كان المقصود قيس بن حارثة صاحب عمرو الذى ينسب اليه فتح الفيوم ، كما تنسب تربة القيس اليه (ابن عبد الحكم ، ص ١٦٩).

بن زيد (١) الذى يروى عن أبى أمامة الانصارى (٢) . وهذان الأخيران من رواة الواقدى كما ينص على ذلك فيما بعد (٣) . ومنهم سعيد ؟ (٤) ، وحسان بن ثابت (٥)، ورافع بن مالك (٦)، وغانم البربوعى (٧)، وأوس بن

---

(١) نظن أنه عبد الله بن زيد بن ثعلبة الأنصارى ، المتوفى سنة ٣٢ هـ . وابنه محمد يروى عنه (الاصابة ، رقم ٤٦٨٦) . ويمكن أن يكون عبد الله بن زيد بن عاصم المازنى المتوفى سنة ٦٣هـ (الاصابة ، رقم ٤٦٨٨ ؛ شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، طبعة القاهرة ١٣٥٠ ، ج ١ ص ٧١)

(٢) أبو أمامة أسعد بن زرارة الصحابى المشهور ، أول من أقام صلاة الجمعة بالمدينة . توفى قبل بدر (ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ص ٧٧ ، ص ١٠٠) . وهو غير ابى امامة الباهلى واسمه صدى بن عجلان ، الذى عاش الى أيام الوليد بن عبد الملك (ابن هشام ، ج ٢ ص ٢٩٥ ، الأخبار الطوال للدينورى ، طبعة ادارة الثقافة ، ص ٣٢٨)

(٣) المخطوط ، ص ١٤١ وجه .

(٤) المخطوط ، ص ١٢١ خلف . ولا نعرف أى سعيد المقصود : سعيد بن يزيد بن عمرو بن نفيل الذى يذكره الواقدى فى مغازيه (طبعة كلكته ، ص ١٢ ، البخارى ، طبعة القاهرة ١٣١١ هـ ، كتاب الصلاة ، ج ١ ص ٨٦) أو سعيد بن المسيب الذى يذكره الواقدى أيضا (ص ٩٨ ، ٢٩٢) ، أو غير هما ممن يذكرهم البخارى مثل سعيد بن جبير (باب بدء الوحى ، ج ١ ص ٨) ، أو سعيد بن يحيى بن سعيد القرشى (باب أى الاسلام أفضل ، ج ١ ص ١١) ، أو سعيد بن عروبة (باب غزوة بدر ج ٥ ص ٧٦) ، أو سعيد بن عفير راوية مصر الذى يروى عن الليث بن سعد فقيه مصر وراويتها المتوفى ، سنة ١٧٥ هـ (ج ٥ ص ١٥٣) ، أو غير هؤلاء جميعا ممن يذكرهم الكتاب .

(٥) المخطوط ص ١٢٤ خلف . حسان بن ثابت شاعر النبى المخضرم المتوفى ٥٤ / ٦٧٤ . كثير راوية هو وابنه عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، وامرأته سيرين (أنظر ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٤٧) .

(٦) المخطوط ، ص ١٢١ خلف . نعتقد أنه رافع بن مالك بن العجلان الخزرجى الأنصارى وكان من النقباء الاثنى عشر بعد بيعة العقبة (ابن هشام ، السيرة ، طبعة القاهرة ١٩٣٦ ، ج ٢ ص ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، وأنظر الاصابة للعسقلانى ، رقم ٢٥٤٤) . وهو وابنه رفاعه بن رافع بن مالك ، وحفيده معاذ بن رفاعة معدودون من رواة البخارى (كتاب الصلاة ، ج ٥ ص ٨١) .

(٧) المخطوط ، ص ١٢٤ خلف ولم نجد فى مغازى الواقدى الا محمد بن عثمان البربوعى (ص ١٤٠) .

المقداد (١) ؛ وعلقمة بن سنان ؛ وزيد بن رافع (٢) ، وهبار بن سفيان (٣) وكثيرون غير هؤلاء (٤) . وآخرهم جعفر بن مسعود البدرى الذى أخذ رواية الشيخ أبى عبد الله المدنى ، الذى كان يقرىء هذا الفتح بالجامع الغربى العمرى بثغر الاسكندرية (٥) .

ولا ينبغى أن نخدع بتلك الأسانيد ، وهؤلاء الرواة . فالمصنف لم يبق عليها الا ليعطى روايته — التى غلبت عليها الأسطورة — نوعا من الأصالة ، وظلا من الحقيقة التاريخية .

وقصة فتح اقليم الفيوم هنا تقع فى حوالى مائة صفحة من الحجم الكبير (فى كل صفحة ٢٦ سطراً وفى كل سطر حوالى ١٧ كلمة). فاذا ماعلمنا أن فتح الفيوم يعتبر من النقاط الغامضة فى فتح مصر حتى قال ابن عبدالحكم — ونقل

---

(١) المخطوط ، ص ١٢٦ وجه . لم نعثر على أوس بن المقداد . ولانعرف ان كان المقصود بالمقداد هنا هو المقداد ابن الأسود بطل بدر المشهور المتوفى سنة ٣٣ هـ (البخارى ، باب بدر ، ج ٥ ص ٧٣) ، أو المقداد بن عمر الكندى (ج ٥ ص ٨٥) .

(٢) المخطوط ، ص ١٢٦ وجه ، لم نستطع التعرف على شخصيتهما . ووجدنا فى الاصابة لعسقلانى ، « زيد بن خاطب ابن أمية بن رافع الأنصارى وربما كان هو المقصود اذ يذكر ابن حجر أن الواقدى قال أنه شهد أحداً وجرح (الاصابة رقم ٢٨٩١) .

(٣) هبار بن سفيان (المخطوط : ابن ابى سفيان) بن عبد الأسد بن هلال المخزومى ، شهد اجنادين أو اليرموك على ما يظن (أنظر ابن حجر ، الاصابة ، رقم ٨٩٣٠) .

(٤) مثل مسلمة بن هشام المخزومى (١٢٩ وجه) ، وأبو محمد البدرى ، وأبو العلاء الحضرمى وشداد بن أوس (ص ١٣٧ وجه ، ١٤٤ وجه) . والأخير منهم معروف وهو شداد بن أوس الأنصارى وهو ابن أخى حسان بن ثابت . نزل بيت المقدس ، وتوفى سنة ٥٨ هـ فى نفس السنة التى توفى فيها عقبة بن عامر الجهنى الصحابى (شذرات الذهب ، ج ١ ص ٦٤ ؛ ابن حجر ، الاصابة رقم ٣٨٤٧) . ومنهم جابر بن سنان ونظن أنه جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سنان... الأنصارى أحد الستة الذين شهدوا العقبة الأولى مع رافع بن مالك وعقبة بن عامر بن زيد (الاصابة لعسقلانى ، رقم ١٠٢٥) وعامر بن عقبة نظن أن المقصود به عقبة بن عامر سابق الذكر ، وربما كان المقصود هو عقبة ابن عامر الجهنى الذى دخل مصر مع عمرو : وآلت اليه ولايتها أيام معاوية (ابن حجر ، الاصابة رقم ٥٩٠١) .

(٥) المخطوط ، ص ١٤٤ وجه .

عنه الكتاب فيما بعد — إن العرب ظلوا ما يقرب من العام وهم لا يعرفون موضع الفيوم . واذا ما عرفنا أن ابن عبد الحكم — على استفاضته وكثرة رواياته — لم يخصص لفتح الاقليم الا أقل من الصفحة الواحدة (١) ، تأكد لنا اصطناع هذه الرواية الغريبة ، وحق لنا أن نتساءل متى ومن أين أتت؟ والخطوط العريضة لهذه الرواية العجيبة تتلخص فى أن بطل الفتح هو خالد بن الوليد — اذ تزعم أنه كان شريك عمرو بن العاص فى قيادة القوات العربية بمصر (٢) . وأن الهاشميين — وخاصة الفضل بن العباس ، وعبد الله وجعفر ومسلم وعلى أولاد عقيل — قاموا بدور أساسى فى هذا الفتح (٣) ، وكذلك الزبير (٤) ، وعبد الرحمن بن أبى بكر (٥) ، ومالك الأشتر (٦) . والرواية تقصد هنا الطالبيين أو العلويين وأنصارهم ثم عبد الله بن عمر (٧) ، وسليمان ابن خالد بن الوليد (٨) .

والى جانب هؤلاء هناك ذكر لعقبة بن عامر الجهنى (٩) ، وعقبة بن نافع الفهرى (١٠) ، والمغيرة بن شعبة — وله دور أشبه بدوره الذى قام به أيام فتح فارس عندما سار سفيراً عن العرب لدى رستم كما تزعم هذه القصة (١١) . وسنترك الاشارة الى الأدوار المدهشة التى قاموا بها الى حين الكلام عن فتح المغرب .

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب (فتح الفيوم) ، ص ١٦٩

(٢) مخطوط فتح البهنسة ، ص ١٠٩ خلف ص ١١٠ وجه وخلف ، ص ١١٣ وجه وفى ص ١١٥ خلف (عمرو هو متولى الأمور وخالد قائد الجيوش) ؛ أنظر طبعة القاهرة ، ص ٢٥ وتابع .

(٣) نفس المخطوط ، ص ١١٠ خلف ، ص ١١٣ وجه ، ص ١١٥ وجه ، ص ١٣٣ وجه ، ص ١٣٥ ، ص ١٤٦

(٤) نفس المخطوط ، ص ١١٥ وجه ، ص ١٢١ خلف .

(٥) نفس المخطوط ، ص ١١٦ وجه وخلف .

(٦) نفس المخطوط ، ص ١١٧ وجه .

(٧) نفس المخطوط ، ص ١٢٢ خلف .

(٨) نفس المخطوط ، ص ١٢٦ وجه .

(٩) نفس المخطوط ، ص ١٢٤ وجه ، ص ١٤١ وجه .

(١٠) نفس المخطوط ، ص ١٢٨ وجه ، ص ١٣٨ خلف ، ص ١٤٣ وجه .

(١١) نفس المخطوط ، ص ١٣١ وجه ، ١٣٣ خلف .

أما عن الأعداء فهناك صاحب أهناس ، وحلفاؤه من ملوك النوبة والبجاه والبربر (١) ، والبطلوس ملك البهنسة (٢) ، واليطارقة معهم الفيلة (٣) أى كما حدث فى فتح العراق وفارس . وأما عسكرهم فعليهم الدروع المذهبة ، ولهم أقبية الديباج والتيجان المكللة باللآلىء والجوهر (٤) .

والى جانب الأعمال العجيبة والخوارق المدهشة ، هناك معلومات لها قيمتها العلمية مثل إقامة الفسطاط التى يسميها " المصر "(٥) كما سميت الكوفة والبصرة « المصران » . وهناك تعداد دقيق للقتلى من كبار المسلمين وعامتهم فى المواقع المختلفة (٦) مما يجعلنا نتذكر دقة أصحاب السيرة وأهل الحديث عندما يصفون غزوات الرسول . كما أن هناك ربط مهم بين فتح الفيوم وفتوح الواحات وبرقة على يدى عقبة بن نافع (٧) يمكن أن يستخلص منها أن فتوح الأقاليم الجنوبية من برقة بدأت فعلا من ناحية الفيوم .

وبمقارنة مخطوط فتح البهنسة والفيوم بمخطوط فتوح مصر للواقدى يمكننا ملاحظة أن فتح مصر يمثل مرحلة أولى من مراحل تطور الرواية التاريخية الى أسطورة أو قصة شعبية . ووجه الشبه كبير بين الروايتين : فكما أن ناقل فتح البهنسة تصرف فى الكتاب فأضاف اليه أضافات كثيرة ربما غلبت على رواية الواقدى المصرى ، كذلك فعل ناقل فتوح مصر للواقدى البغدادى ، وربما كان نفس « الراوى » . فبعض أبواب الكتاب تبدأ بكلمتى « قال الراوى » (٨) ، ولكن ذلك نادر عكس ما فى فتوح

---

(١) نفس المخطوط ، ص ١١٢ وجه .
(٢) نفس المخطوط ، ص ١١٢ خلف .
(٣) نفس المخطوط ، ص ١١٥ خلف ، ص ١١٦ وجه وخلف ، ص ١٢٠ وجه .
(٤) نفس المخطوط ، ص ١١٢ خلف .
(٥) المخطوط (فتح الفيوم) ، ص ١١٠ وجه .
(٦) نفس المخطوط ، ص ١١٩ خلف ، ١٢١ وجه .
(٧) نفس المخطوط ، ص ١٤٣ خلف .
(٨) مخطوط فتوح مصر ، ص ٣٠ خلف ، ٤٤ خلف ، ٤٧ وجه . وهنا نلاحظ أن المخطوط يقول عن ابن اسحق انه « الراوى لمغازى رسول الله (ص ٢٢ وجه) . ولكننا لا نستطيع أن نفكر فى أن المقصود بالراوى هنا هو ابن اسحق اذ يذكر باسمه فى كثير من الأحيان . أما طبعة ليدن فتحمل مكان كلمتى قال الراوى كلمتى « قال صاحب الحديث » (أنظر ص ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٨٨) .

البهنسة (١) . وهذا يفسر كثرة الروايات المنسوبة لغير الواقدى فى المخطوط الأخير . أما فى فتوح مصر فأشهر الرواة وأكثرهم ذكراً هو ابن اسحق ، ويذكر الى جانبه جعفر بن محمد (٢) ، والليث بن سعد ومن نقل عنه مثل نوفل بن عامر ويحيى بن شاكر المدنى (٣) ، وذلك فى مناسبات قليلة نسبياً .

أما أوجه الشبه من حيث الموضوع فتتلخص فى أن بطل الفتح هو خالد ابن الوليد اذ يطغى ذكره على ذكر عمرو (٤) . وهناك ذكر ليزيد بن أبى سفيان (٥) وكان يزيد كما نعرف قد توفى فى طاعون الشام . هذا ولو أن الاسم ورد فى مخطوط فتح البهنسة فى شكل زياد بن ابى سفيان (٦)، وزياد بن أبى سفيان بن عبد المطلب (٧) . وفى جانب الأعداء هناك ذكر للأرمانوسة بنت المقوقس (٨) ، ولأخى المقوقس المسمى أرجانوس (أرمانوس ؟) ، وابن أخيه رسطوبس (٩) ، وزينى أخت مارية القبطية فى دمياط (١٠) ، ودبيل أو كيانوس بن روبيل ملك برقة (١١) . ولكل من هؤلاء دورة الغريب فى قصة الفتح العجيبة .

---

(١) أنظر فيما سبق ، ص ١٣ هامش ١

(٢) مخطوط فتوح مصر ، ص ٢٢ وجه ، ٣٦ خلف ، وقارن طبعة ليدن ، ص ١٢ ، ١٨ ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٧٣ ، ٨١ ..الخ . جعفر بن محمد هو جعفر الصادق ابن محمد الباقر سادس الأئمة الأثنى عشر . كان من اجلاء التابعين وله منزلة رفيعة فى العلم أخذ منه جماعة من المشاهير منهم أبوحنيفة ومالك وجابر بن حيان ، توفى جعفر الصادق فى سنة ١٤٨=٧٦٥

(٣) مخطوط فتوح مصر ، ص ٢٠ خلف ، ليدن ، ص ٣

(٤) نفس المخطوط ، ص ٣٢ خلف وتابع ، ٣٦ خلف ، ٤١ خلف ، طبعة ليدن ، ص ص ٦٢ وتابع ، ص ٨١ ، ٨٩ ، ٩٣ ، .. الخ ..

(٥) نفس المخطوط ، ص ٢٧ خلف ، طبعة ليدن ، ص ٤ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٧٦

(٦) نفس المخطوط ، ص ١١٠ خلف .

(٧) نفس المخطوط ، ص ١١٤ خلف .

(٨) نفس المخطوط ، ص ٢٤ وجه ، ٢٦ وجه ، طبعة ليدن ، ص ٢٠ ، ٣١ ، ٣٢

(٩) نفس المخطوط ، ص ٣٦ وجه وخلف ، طبعة ليدن ، ص ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣

(١٠) مخطوط فتوح مصر ، ص ٣٧ خلف ، طبعة ليدن ، ص ٨٦ (ربنا) .

(١١) مخطوط فتوح مصر ، ص ٤٠ وجه ، ٤١ خلف

وبعد هذا التعريف السريع بالمخطوطات الثلاث نرجع الى « فتوح مدينة افريقية » . ونبدأ بأول ملاحظة على العنوان ، فنرى أن المصنف يذكر فى خطبة الكتاب أنه مختصر فى فتوح افريقية من المهدية الى أقصى المغرب . وهذا يعنى أن العنوان ينبغى أن يكون « فتوح افريقية » أى نفس عنوان الكتاب الذى ينسب الى الواقدى وكما فى طبعة تونس ، أو أن يكون « فتوح مدن إفريقية » فهو يتناول فتح عدد من المدن كما بينا فى محتويات الكتاب . هذا ولو أن المؤلف يذكر أن موضع القيروان هو المهدية (١) . وهذا يعنى أنه قصد بفتوح مدينة افريقية فتح عاصمة البلاد التى هى القيروان أو المهدية حسب روايته . ووضع القيروان الى جانب المهدية أو الخلط بين المدينتين يمكن أن يفسر تفسيراً معقولا : فالقيروان كانت عاصمة المغرب منذ انشائها سنة ٥٠ / ٦٧٠ الى أواخر العهد الأموى وعلى أيام عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى وبنيه ثم على أيام ولاة بغداد الى آخر أيام الأغالبة — رغم أن الأغالبة بنوا مدنا ملكية بالقرب منها مثل العباسة ورقادة . وبعد قيام الفاطميين فى إفريقية اتخذوا لأنفسهم عاصمة جديدة على ساحل البحر هى المهدية ابتداء من سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م . وأصبحت المهدية رمزا لاستقرار الفاطميين فى المغرب كما كانت القيروان رمز استقرار المسلمين فى البلاد فى أوائل الفتح . وهذا يفسر كيف أن المهدية ظلت فى بعض الروايات المغربية المحلية رمزاً لاستقرار المسلمين فى المغرب — وخاصة فى أوساط أولئك الذين يحملون فى نفوسهم ميولاً واتجاهات شيعية — وعن هذا الطريق أمكن الخلط بين القيروان والمهدية رغم ما بين المدينتين من اختلافات كبيرة .

وفيما يتعلق ببناء القيروان نجد أسطورة الوحوش والهوام التى هربت من الموضع بدعاء عقبة بن نافع ، وهى القصة التى يجعلها الكتاب كرامة من كرامات عقبة المستجاب . ورغم أن « فتوح افريقية » يورد هذه المعجزة الا أنه يعطى ما يفسرها تفسيراً معقولا نظن أنه أصل مبدئها التاريخى .

---

(١) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٢ وجه ؛ قارن طبعة تونس ، ص ٢

فالموضع عندما اختير لبناء مدينة عربية كان كثير الأشجار والشعراء (١) . فاقترح أصحاب عقبة احراقها أى الشعراء ، ولكن عقبة أشفق على دواب الأرض الساكنة به أن تحترق فيحاسبهم الله فنادى : « أيها الوحوش ارتحلو غدا انشاء الله تعلى ... ارتحلو اننا أردنا أن نحرقها بالنار نريد ملجأ فيها ويسكنها أصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم . فما تم كلامه حتى رفعت الوحوش أولادها فى أفواهها مثل الغزلان والذئاب » (٢) . وبناء على ذلك يمكن تفسير خروج الوحوش والهوام فزعة من الشعراء كنتيجة للحريق الذى أطلق فى الموضع لتنظيفه قبل البناء . وهذا أمر طبيعى يحدث عندما تلتهم النيران بعض الغابات فتفزع حيواناتها ، وقد يفر بعضها وهو مشتعل فيتسبب فى زيادة الرقعة المنكوبة بالحريق . وهذا ما نظنه تفسيراً مقبولا لأصل الأسطورة (٣) .

أما الملاحظة الثانية فخاصة بصاحب هذا الفتح . والنص يقول : « مما استفتحه أبناء أولادهم (أى الصحابة) — رضى الله عنهم أجمعين — فى زمان عثمان بن عفان — رضى الله عنه — وأمر عليهم عقبة بن عامر ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فينسب الكتاب الفتح الى عقبة بن عامر الصحابى ، وهو أبو حماد عقبة بن عامر الجهنى الذى حضر فتح مصر مع عمرو بن العاص (٤) ، والذى كان نائباً لعبد الله بن سعد بن أبى سرح فى ولاية مصر سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، عندما قامت الفتنة ضد عثمان والذى آلت اليه ولاية مصر أيام معاوية من سنة ٤٤ الى ٤٧ / ٦٦٥ — ٦٦٧ (٥) . وعقبة بن عامر الصحابى لا تعرف له غزوات فى بلاد المغرب ، وانما بطل

---

(١) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٢ وجه (القراءة فى النص : الشعاب والكلمة غير موجودة فى طبعة تونس ، ص ٣) .

(٢) نفس المصدر .

(٣) قارن حسين مؤنس (فتح العرب للمغرب ، ص ١٤٢) الذى يفسر اضطراب الضوارى كنتيجة لحلبة الجيش العربى الذى عسكر الى جوارها .

(٤) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٧٨

(٥) الكندى ، الولاة والقضاة ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ١٣ ، ٣٦ — ٣٨

فتوح المغرب هو عقبة بن نافع الفهرى . ولصاحب الكتاب العذر كما لغيره من الكتاب الذين يخلطون بين عقبة الجهنى وعقبة الفهرى (١) . والسبب فى ذلك أنهم يريدون لفاتح المغرب أن يكون صحابياً — وهو فى الحقيقة تابعى — بعد أن أضفوا عليه صفة الولاية حتى أصبح عقبة المستجاب (٢) .

ومسألة عقبة لا تنتهى هنا ، فالمؤلف يحدد وقت ذلك الفتح « فى زمان عثمان بن عفان» وربما كان المقصود اذن هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، والى مصر فى ذلك الوقت ، وصاحب أول فتح فى إفريقية عندما انتصر على البطريق « جرجير » فى سبيطلة غير بعيد من موضع القيروان فى سنة ٢٧ هـ ٦٤٨ م . وكل هذا يعنى أحد أمرين : إما أن الكاتب يقصد عبد الله ابن سعد بسبب التحديد الزمنى للغزوة ، واما أنه يقصد عقبه بن نافع بسبب موضوعها وهذا ما سنحاول تقريره فيما بعد . ولا بأس من البدء بالاشارة الى أن الرواية تحتوى فى تفصيلاتها على أحداث مبكرة ، وقعت فى أول الفتح ، وأخرى متأخرة وقعت فى القرون التالية .

ومع أن عقبة — ابن نافع أو ابن عامر اذا سايرنا الكاتب فى مثل هذا الخطأ — هو صاحب الفتح الا أننا نجد بطلا روائياً يحجب عقبة تماما ، وهو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب (٣) . وخلف عبد الله بن جعفر يوجد الهاشميون آل بيته الذين يشار لكونه المجد (٤) ، ثم سليمان بن خالد بن الوليد (٥) رغم أن مخطوط فتح النهسة يذكر أنه استشهد قبل ذلك فى الفيوم بعد أن قام

---

(١) أنظر أبو العرب طبقات ، علماء افريقية ، طبعة الجزائر ١٩١٤ ، ص ٩ .

(٢) أنظر البكرى ، ص ٧٣ ، كتاب الاستبصار ؛ طبعة اسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٧٤ .

(٣) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٣ وجه وخلف ، ٤ وجه وخلف .. الخ ، طبعة تونس ، ص ٤ ، ٥ ، ٦ .

(٤) أنظر مخطوط فتوح افريقية ، ص ٧ خلف (عمر بن حمزة — تونس ص ١١) ، ص ٢٧ خلف (الفضل بن العباس — تونس ، ص ٥٥) ، ص ٣٩ وجه وخلف (عبد الله بن العباس — تونس ، ص ٥٧) .

(٥) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٢ وجه ، ٥ وجه ، ٧ وجه .. الخ ؛ طبعة تونس ، ص ٤ ، ٧ ، ١١ .. الخ .

بضروب من البطولة (١) . وخلف سليمان ابن خالد قبيلته من بنى مخزوم(٢) ، وعلى رأسهم بطل آخر منهم هو رافع بن الحارث (٣) . أما عن الأمويين فيظهرون فى دور سلبى فى هذا الفتح ، والنزاع قائم بينهم وبين المخزوميين والهاشميين (٤) . أما عن قوات الأعداء فنجد صاحب المهدية — وهو ابن الملك صاحب المعلقة وكبير ملوك المغرب — زوج ابنة صاحب رومة(٥) . وبنت الملك لها دور مهم فى الفتح(٦) ، وكذلك ابن عم الملك(٧) ، وزوجة الملك الكبير(٨) .

ويسير الأمر على هذا المنوال فى فتوحات المدن الأخرى من سوسة الى سبيبة وشقبنارية وحيدرة وقسطيلية ونبسة الى قسنطينة وأخيراً المعلقة، ويكون للأميرات الروميات أدوارهن المثيرة مع فرسان العرب . وهنا تنحرف القصة بعيداً عن مجال الحقائق التاريخية ، وتوغل فى آفاق بعيدة من الأساطير والخرافات . وسنحاول أن نجد تعليلات لبعض هذه الانحرافات كما سنحاول أن نوضح مفاهيم بعض هذه الأساطير .

ونبدأ بأبطال قصة الفتح من الهاشميين فنجد معظمهم علويين ، وعلى رأسهم عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . وهذا يدل على أن صاحب الكتاب له نزعة شيعية معادية للأمويين وذلك معروف عن الواقدى . وتؤكد بعض التفصيلات الصريحة هذه النزعة . «فعقبة» عندما أراد أن يقسم الهاشميون وبنو مخزوم أنفسهم على القبائل فى حرب سبيبة — ليوجد نوعا من الترابط

---

(١) فتوح افريقية ، المخطوط ، ص ١٢٦ وجه (قطعت يمين سليمان فتناول السيف بيساره واستمر فى القتال ..) .

(٢) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٥ خلف ، ص ٨ خلف ، ص ١٠ وجه .. الخ ؛ تونس ، ص ٨ ، ١٣ ، ١٤ .. الخ .

(٣) نفس المخطوط ، ص ٨ وجه ، ٨ خلف ، ١١ وجه ؛ تونس ، ص ١٢ ، ١٣ ، ١٦ .

(٤) نفس المخطوط ، ص ٥ وجه ، ٤٣ خلف ، ٤٨ خلف ؛ تونس ، ص ٧ ، ٦٤ ، ٧٢

(٥) نفس المخطوط ، ص ٢ خلف ، قارن طبعة تونس ، ص ٣

(٦) نفس المخطوط ، ص ٣ خلف ، تونس ، ص ٥

(٧) نفس المخطوط ، ص ٩ وجه ؛ تونس ، ص ١٣

(٨) نفس المخطوط ، ص ١٦ خلف ؛ تونس ص ١٢

بين القبائل — رفض الفضل بن العباس وقال له : « أنت أمير على الجيش ولا لك أمر علينا ، نحن أهل الخلافة . ونحن وهبنا أنفسنا لله ولرسوله ولعثمان بن عفان » (١). فرغم عدم صحة هذه التفصيلات فيما يتعلق بالاشخاص فانها تعبر عن حالة التذمر التي وقعت أيام عثمان ، والتي تلخصت في نقد ومعارضة عماله ، والدعوة الى أحقية علي في الخلافة . وهي هنا تنطبق على عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ينسب اليه الكتاب الفتور وعدم الحماس للاسلام في أول أمره (٢) . ويتضح هذا الاتجاه العلوي أو الشيعي بعد ذلك بصراحة دون تمويه . فالنص يقول : إن «عقبة» عندما كتب الى عثمان يطلب منه المشورة في وجهة الفتوح أكد له أن عبد الله بن جعفر هو صاحب الفتوح ، وأنه « مفتاح جيش المسلمين ، وكلما صعب على المسلمين يتولاه بنفسه ، ولا يسير المسلمون الا به ، فلله دره عماد الجيش»(٣). ويقول إن عبد الله بن جعفر كتب هو الآخر ، ولكن الى علي بن أبي طالب فأخبره بالفتح ، ووجه اليه الخطاب قائلا : «وتعلم ياسيدي أن زوجة صاحب سبيبة قد أسلمت ، وهي بنت صاحب رومة ، وهي — سبحان الله ماخلق فيها من الجمال والكمال — وهي قد وهبت نفسها لك »(٤) . وبينما يرد عثمان على « عقبة » فينصحه بالا يفعل شيئاً أو يبرم أمرا الا بعد استشارة عبد الله

(١) فتوح افريقية ، المخطوط ، ص ٣٩ خلف ، والنص مختلف بعض الشيء في طبعة تونس (ص ٥٨) : « نحن أهل الخلافة ونحن وهبناها لعثمان بن عفان — رضي الله عنه — ووهبنا أنفسنا لله ورسوله فو الله مالك علينا يد ولا نقاتل الا متقدمين » . والنص هنا يشير صراحة الى شرعية مطالبة العلويين بالخلافة .

(٢) أنظر ابن عذاري ، البيان المغرب ، طبعة ليدن ، ١٩٤٨ ، ص ٩ .

(٣) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٦٦ وجه ، وقارن طبعة تونس ، ص ١٠٠ حيث تقرأ : « وهو عماد جيش المسلمين وكل ما صعب على المسلمين تولاه بنفسه ولا تبيض الوجوه الا به فلله دره »

(٤) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٦٦ خلف (سبق ان قالت الرواية ان زوجة صاحب المهدية هي ابنة ملك رومة — انظر فيما سبق ص ٢٢ وهامش ٥) ، وقارن طبعة تونس ، ص ١٠١ حيث يختلف النص بعض الشيء : « وهي على غاية من الحسن والجمال سبحان الذي أنشأها وصورها ، وقد آلت على نفسها أن لا ينظر لوجهها أحد غيرك ، والسلام عليك ورحمة الله » .

بن جعفر (١) ، يصل كتاب على بن أبي طالب بحمل أوامره الى « عقبة » بوجهة الفتوح (٢) ، وكذلك الى عبد الله بن جعفر . وهو يخاطب هذا الأخير فيسميه : « الولد المطيع ، الفارس المجلي ؟ ملة الاسلام من بني عبد المطلب ويقول : « والمرأة التي ذكرت لا يزوجها (يتزوجها) أحد غيري ، فأنت الوكيل عليها الى أن تبلغها لناه . وفي آخر الخطاب يطلب على من عبد الله بن جعفر — وهذا أمر غريب — كسوة لأقاربه ، ويختمه بقوله « وابعث لنا مائة دينار والسلام » (٣) .

هذه الكتب المنسوبة الى على بن ابي طالب تعبر عن فكرة شعور على بأحقيته في الخلافة — دون عثمان — بصفته عميد الاسرة الهاشمية ، كما تعبر عن أنه مارس هذه الأحقية ، وخاصة بعد أن اضطرب أمر عثمان ،في أواخر أيامه . أما النص الخاص بابنة صاحب سبيبة التي وهبت نفسها له فقد يعبر عن موقف الشيعة المتساهل بالنسبة لذلك النوع من الزواج المؤقت ، المعروف بـ « زواج المتعة » ، والذي يتم دون التمسك تماما بالشروط التقليدية المعروفة للزواج . أما الملاحظة الاخيرة التي تستوعي الانتباه ، فهي تلقيب على لعبدالله بن جعفر — في المخطوط — بـ « الولد المطيع » : وذلك أننا نعرف أن كلمة « الولد » كانت لقبا لولي العهد عند الأمويين في الأندلس (٤) . وهذا يعني شيئين : أن الأثر الأندلسي أو المغربي واضح في الرواية — المشرقية الأصل — كما أن توقيتها يرجع الى ما بعد عصر الفتوح بوقت طويل .

---

(١) فتوح افريقية ، المخطوط ، ص ٦٨ وجه ؛ طبعة تونس ، ص ١٠٣ .

(٢) نفس المخطوط ، ص ٦٨ خلف . وهذا الخطاب غير موجود في طبعة تونس (أنظر ص ١٠٣) .

(٣) نفس المخطوط ، ص ٦٨ خلف — ٦٩ وجه . ونص الخطاب في طبعة تونس (ص ١٠٣) مختلف تماما فهو يبدأ بـ : الى ابن اخي عبد الله بن جعفر سلام عليك ورحمة الله وبركاته أما بعد .. آمرك بتقوى الله وطاعته واياك وعواقب النفس .. » أما عن القطعة الأخيرة الخاصة بارسال الكسوة والنقود فهي لا توجد فيه .

(٤) أنظر ليفي بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الاسلامية (بالفرنسية)، طبعة ١٩٤٤، ص ١١٣ ، ١٢٨ .

وعبد الله بن جعفر يمثل المحارب البطل والفارس الذى يفتن النساء . هكذا افتتنت به ابنة الملك الحميلة الأدبية — التى رفضت الزواج من كل امراء افريقية حتى « حلف أبوها على نفسه لا يزوجها الا من شاءت » — وذلك عندما دخل عبد الله الى قصر الملك والدها رسولا عن عقبة (١) . وأخفت بنت الملك فاتنها ثم خرجت معه من القصر سراً ، ووهبت نفسها له أمام أصحابه . وخرجت خيل الملك فى طلبهم ، « ودارت بهم كدوران الرحى وهم فى وسطهم كالشامة البيضاء فى جنب البعير الأسود ، فلم يجدوا ملجأ يلجون فيه الا الله عز وجل » (٢) . ونادى سليمان بن خالد : « الجنة تزخربنا ، وهى تحت ظلال السيوف » . وعندئذ لم ينقذ الموقف الا عمر بن حمزة بن عبد المطلب « فاتبعهم كالسباع فى أثر الغنم » (٣) . وتقول هذه القصة إن كل هذا حدث وبنو أمية يرجون ألا يرجع من الهاشميين والمخزوميين أحد ، وعقبة — رضى الله عنه — لا يعلم من الأمر شيئاً ، ومع ذلك فانه قبل عذر جماعة المغامرين بعد عودتهم ، وأسلمت بنت الملك (٤) . وغضب ابن الملك وقال : « كيف يجرحكم زعانيك (صعاليك) العرب ، أخرجوا اليهم وقاتلوهم على الدين القديم ودينهم محدث » (٥) . ويقف الجيش الاسلامى فى هيئة القتال ، ومع بنى هاشم ١٢٠ راية ، ومع بنى مخزوم ١٠٠ راية ،

---

(١) فتوح افريقية ، المخطوط ، ص ٣ خلف ، قارن طبعة تونس (ص ٥) حيث يختلف النص بعض الشىء وهو : « وآلى أبوها على نفسه الا يزوجها الا بمن ارادت »

(٢) فتوح افريقية ، المخطوط ، ص ٧ وجه ؛ وقارن طبعة تونس (ص ١١) حيث النص : « ودواروا بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دوران الرحى وهم فى وسطهم كالشامة البيضاء فى جلد البعير الأسود ، فلم يجدوا ملجأ يلجأون اليه » . ونلاحظ ان اصطلاح « فأصبحوا كالشامة البيضاء فى البعير الأسود » يرد أيضاً فى فتح البهنسة والفيوم (مخطوط فتح البهنسة ، ص ١٣٥) .

(٣) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٧ خلف . وجملة : فاتبعهم كالسباع فى أثر الغنم » غير موجودة فى طبعة تونس (أنظر ص ١١) .

(٤) فتوح افريقية ، المخطوط ، ص ٨ وجه ، طبعة تونس ، ص ١٢ .

(٥) المخطوط ، ص ٨ خلف ؛ وقارن النص فى طبعة تونس (ص ١٢) : « قال لهم : كيف يحاصركم صعاليك العرب ، اخرجوا اليهم وقاتلوهم على دين آبائكم ودين عيسى بن مريم »

بينما تتكون قوات عقبة من قبائل طيء ولخم وجذام وحمير وغسان (١) . أما جيش ابن الملك ففيه ألف طبل تضرب ، و٣٠ صفا في مقدمتهم الصلبان ، وبين أيديهم الأناجيل (٢) .

وقبل التقاء الجيشين بدأ البراز بين الفرسان . وخرج ابن عم الملك واسمه سيطور يطلب مبارزاً ، و« كان في جيبه مائة الف دينار ذهبا ، وبيده حجفة تساوي الف دينار ، وحلة جواده كلها ذهب يتوقد » (٣). ووقفت زوجة ابن الملك الأكبر هي وبنت الملك صاحب مدينة حيدرة في صف النصارى تحرض فارسهم على مبارزة عبد الله بن جعفر ، بينما وقفت زوجة هذا الأخير الرومية (بنت الملك الأكبر وأخت صاحب المهدية) في صف المسلمين(٤) . وخرج كل من كان في المهدية ، كبيرهم وصغيرهم ، ذكورهم وإناثهم ، حرهم وعبدهم ، ينظرون الى عبد الله مع صاحبهم . وخرج ابن جعفر وعليه « درعين داوديين ولامة حسنة لم يكن أحسن منها » (٥) . وضرب عبد الله خصمه « ضربة هاشمية » فقتله (٦) ، وثنى بقائد آخر اسمه « ديلاق » ، ولم يزل يطلب منهم واحداً بعد واحد الى أن قتل منهم ٨٠ فارساً (٧) .

---

(١) المخطوط ، ص ٨ خلف ، طبعة تونس ، ص ١٣ .

(٢) المخطوط ، ص ٨ خلف ، وقارن طبعة تونس ، ص ٣ (تلا ثون صفا ناقصة).

(٣) المخطوط ، ص ٩ وجه ، وقارن طبعة تونس (ص ١٣) حيث يختلف النص ففيه : « وكان فارساً شديداً .. راكبا جواداً أصفر اللون ، وعليه حلة عجيبة ثمينة ، وكل ما على جواده من الذهب الوهاج » . فليس هناك ذكر لما كان يحمله من النقود ، ولا للحجفة (وهي الدرقة) الثمينة.

(٤) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٩ وجه ؛ قارن طبعة تونس ، ص ١٣ .

(٥) نفس المخطوط ، ص ٩ خلف . والدروع الداودية مذكورة في فتوح البهنسة (المخطوط ، ص ١١٠ خلف ، ١٢٥ وجه) ولكنها لا تذكر في طبعة تونس إذ يقول النص : « وركب عبد الله جواداً أبيض ، ولبس ثياب بيضا ، وجعل ثوب رسول الله صلى الله عليه على جسده ، ولبس درعا كان لجده ابي طالب » .

(٦) نفس المخطوط ، ص ١٠ وجه ؛ وقارن طبعة تونس (ص ١٤) حيث نقرأ : « فعمل عبد الله عليه حملة هاشمية ، وطعنه على غرته فقسمها نصفين ، فخر في الأرض ميتا » .

(٧) نفس المخطوط ، ص ١٠ وجه وخلف ؛ طبعة تونس ، ص ١٥ .

أما فارس بنى مخزوم : وهو رافع بن الحارث فقتل ١٢٠ فارسا ، وأخذ لباسهم (١) . ولم يفعل بنو أمية شيئاً رغم ما تكلم الناس به ، وما قالوه لهم : « انتم المداد والأصل .. أخرجوا واحداً منكم يطلب البراز » وطلب عبد الله ابن جعفر مبارزة ابن الملك الذى وافق رغم ماقاله أصحابه : «كيف تخرج الى عربى راعى الأبل ، ماله قدر ولا مروءة ولا حسب ، ولا هو معروف بالامارة ولا بالمملكة » (٢) . وأسر عبد الله ابن الملك الذى فكت أخته وثاقه ، وصحبته الى المدينة . فأرجعها الى معسكر المسلمين محملة بالهدايا العجيبة : «الف مطية محمولة بالخبز والحرير ، وعلى كل مطية الف دينار ذهباً ، وألف خادم ، وألف أوقية من المسك ، وألف خاتم ذهب ، وألف خاتم فضة » (٣) .

وتبدأ محادثات بين ابن الملك والمسلمين ويكون الدين موضوعاً من موضوعاتها . ويخرج ابن الملك الانجيل فاذا فيه صفات النبي ، فيدخل فى الاسلام سراً ، ولكن أهل المدينة عرفوا أمره فلم يدخلوه (٤) . وينتهى أمر المهدية بدخول العرب ، ولكن عن طريق مؤامرة حريم . فقد أسلمت زوجة الملك الأكبر عندما تحققت من صحة الاسلام من القسيس الأكبر . وأرسلت ١٥٠ امرأة رومية الى العرب بحجة ارجاع ابنتها وأخيها ، وكانت تضمر أن يعود المسلمون فى لباس الفتيات . وفعلا نجحت الحيلة ودخل المسلمون المدينة وهم فى زى الروميات ثم فتحوا

---

(١) نفس المخطوط ، ص ١١ وجه ؛ وقارن طبعة تونس (ص ١٦) وآخر النص فيها « وأخذ سلبهم » ، وهذا أصح من المخطوط .

(٢) نفس المخطوط ، ص ١١ خلف ؛ وقارن طبعة تونس (ص ١٧) والنص فيها مختلف بعض الاختلاف فقيه : «كيف تخرج الى عربى راعى ابل لا شرف له ولا امارة ، ولا حسب ولا نسب ، ولا هو معروف بمملكة» .

(٣) نفس المخطوط ، ص ١٢ خلف ؛ وقارن طبعة تونس (ص ١٨) حيث نجد : « الف مطية محملة بالبز » بدلا من الخبز كما فى المخطوط ، وهذا أرفق .

(٤) نفس المخطوط ، ص ١٥ خلف ؛ طبعة تونس ، ص ٢١

الأبواب ، ودخل عقبه المدينة ، ومعه ابن الملك ، وبنى بها مسجداً (١) . وهكذا انتهت قصة فتح المهدية «بحمد الله وحسن عونه» كما يقول المصنف(٢) .

والذى نخرج به من هذه القصة هو أن شرف الفتح جميعاً يرجع الى عبد الله بن جعفر الذى حجب قائد الحملة عقبة (ابن عامر) . وبطولة ابن جعفر فى هذه الرواية العجيبة لا يوجد لها قرين فى المصادر الأصيلة للفتح الا قصة عبد الله بن الزبير عند هزيمة جرجير أمير إفريقية الرومى وفتح سبيطلة سنة ٢٧ / ٦٤٨ . اذ تنسب هذه المصادر الى عبد الله بن الزبير وضع الخطة الحربية للمعركة النهائية — بأن أعد كمينا فاجأ العدو بعد أن أجهده القتال (٣) — وتضفى عليه من الأهمية ما لاتضفيه على قائد الحملة عبد الله بن سعد . والى جانب ذلك تظهر فى هذا الموضع — فى المراجع الموثوق بها فى تاريخ المغرب — مغامرة نسائية غريبة : هى قصة أسر بنت جرجير الشابة الرومية التى كانت تتطلع الى ميدان القتال من فوق أسوار القلعة تحيط بها وصيفاتها . وقصة ابنة جرجير هذه أول قصص الحريم فى أحداث الفتوح العربية . فلقد أوردها ابن عبد الحكم مقتضبة فقال إن «ابنة جرجير كانت قد صارت لرجل من الأنصار فى سهمه فأقبل منصرفا فدحلها على بعير له ...» ، وانتهى أمرها بأن «ألقت نفسها عن البعير فدقت عنقها فماتت» (٤) . ولقد أشار ابن عبد الحكم بسرعة الى الدور الذى قام

(١) مخطوط فتوح افريقية ، ص ١٦ — ٢١ ؛ وقارن طبعة تونس (ص ٢٢ — ٢٩) التى تختلف فى الألفاظ والتعبيرات كما هى العادة .

(٢) نفس المخطوط ، ص ٢١ خلف ؛ قارن طبعة تونس (ص ٢٩) حيث لا توجد هذه العبارة . ولكن طبعة تونس تزيد عن المخطوط أن المسلمين أقاموا سبعة أيام حتى احتفلوا بدخول عبد الله بن جعفر بابنة الملك ، وعلموا الذين اسلموا أمور دينهم ، ثم تختم هذا بدعاء لعقبة ابن نافع يقول فيه : « اللهم يامن لا يماثله موجود ويامن ليس له والد ولا مولود ، ويامن كل شىء عنده بأجل محدود نسألك ونترجه اليك ان تصلى على سيدنا محمد وعلى آله عدد ما ذكره الذاكرون » .

(٣) بعض الروايات تنسب هذه الخطة الى رجل من القبط نصح بها عبد الله بن سعد (رياض النفوس للمالكى ، ص ١١) .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٥ .

به عبد الله بن الزبير ، فقال عن جرجير : « وكان الذى ولى قتله فيما يزعمون عبد الله بن الزبير (١) . واستعمال ابن عبد الحكم كلمتى « فيما يزعمون » ثم عدم اشارته الى مصدر الرواية . على غير عادته — مما يشكك فى أصالة كل من الروايتين .

ونحن نرى أن الزبيريين هم الذين عملوا على اذاعة هذه الأمجاد عن أسرتهم فنسبوا الى عميد الأسرة الأول — الزبير بن العوام — فخر الانتصار فى بابليون فى مصر ، كما نسبوا الى ابنه عبد الله — الذى بلغت الأسرة على أيام مطالبته بالخلافة أوج عظمتها — شرف الانتصار فى سبيطلة بأفريقية . وكثير من روايات ابن عبد الحكم وكذلك روايات الواقدى التى ينقلها البلاذرى وغيره من الكتاب ، وهى الروايات الخاصة بالزبيريين ، مستقاه من عروة بن الزبير الذى يأخذ عن طريقه ابن لهيعة راوية ابن عبد الحكم (٢) ، ومن هشام بن عروة ، وهو من أشهر رواة الزبيريين أيام المنصور العباسى (٣) ، وكذلك من نافع مولى آل الزبير الذى ينقل عنه أسامه بن زيد بن أسلم ثم الواقدى (٤) . وهكذا ذاعت قصة عبد الله بن الزبير وأعماله البطولية ، كما ذاعت قصة ابنة جرجير ، ووجد الكتاب فيهما موضوعا خصباً للإثارة فجعلوهما موضوعا واحداً ، وأضافوا اليهما التفصيلات الغريبة : فعبد الله بن سعد أعلن أن من قتل جرجير فله ابنته . وبعد أن قتل عبد الله ابن الزبير جرجير أمسك عن اعلان ذلك تواضعاً أو ترفعاً حتى آلت الشابة الاغريقية الى بدوى من أهل المدينة حسب احدى الروايات والى عبد الله ابن الزبير — بعد أن دلت الفتاة على أنه قاتل أبيها الذى فتنها بشجاعته — حسب رواية أخرى (٥) .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨٣ .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٨٩ ، ١٦٤ ، ١٦٦ .

(٣) أنظر ابن عبد الحكم ، طبعة ليدن ، ص ١١٤ ، ١٨٥ .

(٤) البلاذرى ، طبعة ليدن ، ص ٢٢٦ .

(٥) أنظر المالكى ورياض النفوس ، طبعة مؤنس ، ص ١٠ — ١٥ .

وهكذا بدأت الحقيقة التاريخية تتطور شيئاً فشيئاً الى أسطورة . فالزبير ابن العوام وابنه عبد الله كانا من أبطال الفتوح وكانت لها أطماعهما من غير شك ، ووجود ابنة الأمير البيزنطي ووصيفاتها في القلعة أو القصر أمر يدعي ألا نشك فيه أيضاً . ولكنا نلاحظ أن قصة ابنة جرجير غير موجوده في روايات الواقدي التي ينقلها ابن عبد الحكم والبلاذري ، والمالكي صاحب رياض النفوس . وعندما تكلم ابن عبد الحكم والبلاذري عن مفاخر ابن الزبير ذكراها بشيء من الاختصار دون سند أو عن طريق الزبيريين أنفسهم . ثم تلقف الرواة القصة وزخرفوها وزادوا في أمجاد بطلها الى أن بلغت الشكل الذي ذكرناه ، وذلك عند ابن الأثير (أوائل القرن السابع الهجري) ثم من نقل عنه من المؤرخين مثل النويري وابن عذاري (١) . والى هذه المرحلة ظلت الرواية تحتفظ بشكلها التاريخي المقبول ، ثم إنها وصلت الى المرحلة التي غلبت فيها الأسطورة على الحقيقة التاريخية كما في فتوح إفريقية في قصة عبد الله بن جعفر وابنة الملك مع تغيير في الأشخاص — كما ذكرنا وكما سنذكر — وذلك قبل أن تصبح مادة للاساطير الشعبية — التي يعرفها الغربيون بالفلكلور كما في القصة الشعبية الشهيرة : ملحمة العرب الهلالية في المغرب أو قصة « أبو زيد الهلالي » .

واذا وجدنا من يضخم أمجاد بني الزبير كان من الطبيعي أن نجد من يتغنى بأمجاد الأسرة العلوية ، ويخترع لآل البيت البطولات الشخصية . فعلي بن أبي طالب عرف بأنه فارس مغوار كما اشتهر بشجاعة تكاد تكون أسطورية ، وكذلك بنوه . فالحسين وهو مغلوب على أمره في كربلاء لم يفقد شجاعته فكان يشد على مهاجميه — الذين تداعوا أمامه — كما يشد الذئب في الغنم ، كما يريد بعض الكتاب (٢) . وكان من الطبيعي أن تظهر أمجاد الأسرة منذ وقت مبكر بفضل الكتاب من أصحاب الميول الشيعية مثل الواقدي والمسعودي وغيرهما ثم تجسمت هذه الأمجاد بعد أن نجح الشيعة في تكوين

---

(١) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٩٢ وهامش ٢ .

(٢) أنظر ابن الأثير ، أحداث سنة ٦١ هـ .

دول لهم فى المشرق وفى المغرب . ولقد كان للفاطميين أثرهم الدائم فى المغرب الذى تمثل بصفة خاصة فى مدينة المهدية عاصمتهم الأولى . فأصبحت المهدية رمز استقرار الشيعة فى المغرب كما كانت القيروان شاهد استقرار المسلمين فى البلاد . ونظر أصحاب الميول الشيعية الى قيام الدولة الفاطمية على أنه قيام لدولة الاسلام فى المغرب وأذاعوه ، فاختلطت فى أذهانهم مهدية عبيد الله بقيروان عقبة . ثم نسبوا شرف الجهاد الى أبطال العلويين بدلا من من أبطاله الحقيقيين . فأصبح بطل الفتح عبد الله بن جعفر بدلا من عقبة (بن عامر) وهى تقصد فى الحقيقة بدلا من عبد الله بن سعد . وهكذا تطورت قصة أول فتح عربى فى افريقية وهى غزوة عبد الله بن سعد بن أبى سرح الى قصة خيالية رغم احتفاظها بمعالمها التاريخية . فأصبح فتح سبيطلة هو فتح المهدية — والمقصود القيروان — ، وأصبح عبد الله بن الزبير هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وأصبح عبد الله بن سعد هو عقبة بن عامر — والمقصود عقبة بن نافع . أما ابنة جرجير التى فضلت الانتحار على الأسر فصارت بنت الملك التى فتنت بعبد الله بن جعفر وعملت ووالدتها الملكة على ادخال العرب الى المدينة .

واذا لم يكن من الصعب تفسير تلك المفاخر التى نسبت الى الهاشميين — وخاصة أن بعض رجالهم اشترك فعلا فى غزاة عبد الله بن سعد مثل معبد بن العباس بن عبد المطلب الذى توفى بافريقية والذى يؤيد الواقدى الرواية التى تقول انه استشهد هناك (١) — فانه ليس من السهل تفسير ذلك الدور الذى نسب الى بنى مخزوم ، وعلى رأسهم سليمان بن خالد بن الوليد ، ورافع بن الحارث . فسليمان بن خالد سار نجدة لعبد الله بن جعفر عندما خرج من القصر مع بنت الملك (٢) . ولما لحقت الجماعة بهما اصطحبت الاميرة الى فسطاط رافع بن الحارث لأنه كان يصحب زوجته معه (٣).

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٨

(٢) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٤ خلف ، ٥ وجه ، قارن طبعة تونس ، ص ٦ — ٧

(٣) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٨ وجه ؛ طبعة تونس ، ص ١٢

ورافع هو الذى بارز ابن عم الملك (١) ، وقتل مائة وعشرين فارسا من فرسان العدو (٢) ، وهو الذى راسل ابن الملك يعرض عليه الاسلام أو الجزية أو القتال (٣) . وأخيراً تزوج رافع بنت ملك سبيبة بأمر عبد الله بن جعفر (٤).

ونستطيع أن نجد بداية تاريخية لأسطورة بنى مخزوم هذه فى قصة خالد بن الوليد زعيم المخزوميين . فخالد نموذج للفارس العربى فى الجاهلية والاسلام . فهو بطل أحد ، وهو «سيف الله» فى مؤتة ، وهو صاحب حرب الردة وهو صاحب الانتصارات الأولى فى العراق، ثم هو بطل اجنادين . وعلى ذلك فتاريخ جهاد خالد يمثل قصة مثيرة ، وخاصة بعد أن لقى شيئاً من العنت أو نكران الجميل من جانب عمر الذى ربما كان يحسده أو يخشاه . وبينما جنى أصحابه وأبناؤهم ثمرة كدهم وكفاحهم فى شكل مكاسب سياسية ومنافع مادية ، انتهى خالد نهاية شبه مغمورة سنة ٢٢ / ٦٤٢ حتى أنه لا يعرف إن كان قد مات بحمص أو بالمدينة (٥) — وهى نهاية لا تتناسب مع أمجاده وحسن بلائه . ولم يرث أبناؤه عنه الا تلك السمعة وذلك الصيت الذى يثير شكوك أولى الأمر ويبعث الاشفاق فى قلوبهم حتى أنه يقال إن معاوية دس السم لابن خالد ، وهو عبد الرحمن عند عودته من حرب الروم سنة ٤٦ / ٦٦٦(٦) .

وبطبيعة الحال لم يكن بنو مخزوم ليرضوا عن ذلك الجزاء الغريب . ويعبر عن ذلك ما قاله عمر بن الخطاب لعمرو بن حفص بن المغيرة عندما احتج على عزل خالد : «انك قريب القرابة، حديث السن ، مغضباً

(١) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٩ وجه ؛ طبعة تونس ، ص ١٣
(٢) مخطوط فتوح افريقية ، ص ١١ وجه ؛ طبعة تونس ، ص ١٦
(٣) مخطوط فتوح افريقية ، ص ١٣ وجه ؛ طبعة تونس ، ص ١٩
(٤) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٢٩ وجه ؛ طبعة تونس ، ٤٠
(٥) أنظر مقال خالد بن الوليد فى دائرة المعارف الاسلامية .
(٦) ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٦

لابن عمك » (١) . ولم يكن أولئك الرجال الذين طالما قادهم خالد الى النصر ليرضوا عن ذلك . وهنا ربما التقى الهاشميون والمخزميون — عن غير قصد — من حيث الشعور بالغبن ، والعداء لأولى الأمر من الأمويين . ولم يعدم أولئك وهؤلاء الأتباع والأنصار الذين يتغنون بأمجادهم ويعرضون بخصومهم . وهناك نص يهمنا فى فتوح مصر والاسكندرية المنسوب للواقدى ، يبين كيف أن ابن اسحق — أقدم أصحاب المغازى والفتوح — أخذ وقائع عن فتح الشام ومصر « عن مشايخ ثقات وثق بهم من آل مخزوم » . ومن هؤلاء نوفل بن مشاجع المخزومى ، ابن عم خالد بن الوليد، وكان من المعمرين ؛ ومنهم فهد بن عاصم بن عمرو بن سهيل بن عمر المخزومى (٢) . كما يذكرلنا « فتوح البهنسة » أن من رواته سلمة بن هشام المخزومى ؛ وكان ممن حضر الفتح (٣) . وعن طريق هؤلاء كما نظن نسب مخطوط فتح البهنسة والفيوم شرف الفتح الى خالد بن الوليد — الذى كان حينئذ بالشام — وجعله تحت قيادة عمرو ، كما جعل للهاشميين دورهم الى جانب خالد . أما فى إفريقية فتنعكس الآية ، ويصبح الهاشميون هم الأصل والمخزوميون هم الفرع وكذلك الزبير وابنه عبد الله .

وبذلك يشترك فى قصة الفتح أربعة أطراف :

١ — الولاة أو القواد ، وهم الموظفون الرسميون ويظهرون بمظهر المحايدين ، وإلى جانبهم العصبية الأموية صاحبة الدولة . وموقف الأمويين شبه سلبى .

٢ — الهاشميون .

٣ — المخزوميون ولهم موقفهم الايجابى فى الفتح

---

(١) ابن حجر ، الاصابة فى تمييز الصحابة ج ١ ، ص ٤١٤ ؛ حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج ١ ص ٢٢٨

(٢) أنظر طبعة ليدن ، ص ١٨ ، ١٩

(٣) المخطوط ، ص ١٢٩ وجه .

٤ ـ الزبيريون .

وهذا يعني أن النزاع السياسي ـ أولا وقبل كل شيء ـ بين هذه الأسر الكبيرة، هو الذي أملى تطور الحقيقة التاريخية في ذلك الاتجاه الاسطوري المصطنع الذي أشرنا اليه ، وهو الذي أدى الى ظهور هؤلاء الأبطال الخرافيين في تلك المواقف المدهشة .

ومثل هذا الاتجاه يظهر أيضاً بالنسبة للمعلومات الخاصة بجمهرة المقاتلة من العرب . فـ « فتوح مدينة افريقية » يذكر أن القبائل التي كانت مع عقبة ـ من غير العصبيات الكبرى السابقة ـ هي حمير وغسان ولخم وجذام وطيء(١). وهذا يعني أن القبائل اليمنية هي التي قامت بالنصيب الأكبر في تلك الفتوح. ونرى فعلا أن قبائل حمير تحتل مركز الصدارة في هذا النص: فقوة عقبة التي كان عليها حماية النساء والأموال عند سبيبة بلغ عددها الف رجل جلهم من « أخلاط العرب الا حمير » (٢) . وحمير هي التي حققت المغانم العظيمة ـ بينما كان النزاع على أشده بين الهاشميين والأمويين ـ من الذهب والحرير والمسك والفلفل . ولم يستأثر الحميريون بهذه المغانم بل قاسموا الهاشميين وأشركوهم معهم فيما غنموا (٣) .

والإصرار هنا على أن حمير هي صاحبة كل هذه الأفضال له مغزاه . فالمعروف أن عرب الشمال من العدنانية أو النزارية هم الذين كان لهم مركز الصدارة في الفتوح الاسلامية الأولى بحكم أن الدعوة الاسلامية قامت في الحجاز ونجد، أي في مواطنهم، ومنهم قبائل قريش التي هي فرع من مضر. أما اليمنية ومنهم حمير فكان لهم دور ثانوي . ومع أن أهل المدينة من الأوس والخزرج ينتسبون الى اليمن الا أنهم كانوا أنصارا أولا وقبل كل شيء ، وكان لهم كيانهم الخاص . ولقد تغير هذا الموقف بعض الشيء عندما انتقلت الخلافة مع معاوية الى الشام : فاهتم معاوية بقبائل كلب اليمنية وصاهرهم ،

---

(١) المخطوط ، ص ٢ وجه ، ص ٣٨ خلف ، ص ٤٥ خلف ، ص ٧٦ وجه ، ص ٨٤ خلف ، طبعة تونس ، ص ٥٥ ، ٥٧ ، ١١٤ ، ١٣١

(٢) نفس المخطوط ص ٣٠ وجه ؛ طبعة تونس ، ص ٤٢ (هنا يختلف النص بعض الشيء اذ يقول : « ومعه ٣٠ ألفا من أخلاط العرب ، وعرب حمير كلهم معه الا أميرهم حزام بن ضرار ... »)

(٣) نفس المخطوط ، ص ٤٩ خلف ، طبعة تونس ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

ومال اليهم ابنه يزيد بصفتهم أخواله ، وقام اليمنيون بدور سياسى هام عندما هزموا القيسية فى مرج راهط سنة ٦٥ هـ وأكدوا ملك المراونين . ولكنه رغم ذلك ظل التفوق للقيسية أى للعدنانية فى معظم الأوقات ، فكان منهم كبار العمال من رجال الحرب والادارة أمثال يزيد بن أبيه والحجاج وموسى بن نصير وقتيبة بن مسلم ونصر بن سيار . ولم تظهر اليمنية الا فى أوقات قليلة كما حدث أيام سليمان بن عبد الملك بفضل المهلبيين . ولهذا وقفت اليمنية موقف الحزب المعارض من الدولة الأموية على أواخر أيامها ، واشتركوا فى التآمر على الوليد بن يزيد وقتلوه كما تحالفوا مع دعاة العباسيين .

وهنا نجد تشابها بين موقف اليمنية وبين موقف الهاشميين من الدولة الأموية من حيث أن كلا من الجماعتين وقف موقف المعارضة . ولما كان من الطبيعى أن كلا من الطرفين لم يقم بدور رئيسى فى تأسيس الدولة العربية الكبرى وإدارة أمورها ، لم يكن من الغريب أن يلجأ الى تعويض ما كانا يتمنيانه وافتقداه فى واقع الأمر ، عن طريق تحقيقه فى عالم الخيال . وهكذا فعل اليمن وأنصارهم — كما فعل الهاشميون وأشياعهم — فنسبوا لأنفسهم الأمجاد وعظائم الأعمال فى العصر الاسلامى الأول . واستغل اليمن ما كان لهم من الملك والشهرة قديماً ، ووسعوا رقعة هذه الأمجاد بشكل عجيب فى عصور ما قبل الاسلام وخاصة عصور مملكة حمير (١) . وامتلأ تاريخ اليمن القديم بالأساطير التى تناقلها الكتاب فيما بعد والتى تنسب الى اليمنية القيام بأعمال خارقة . فاذا كان العرب وخاصة العدنانية منهم قد قاموا بفضل الاسلام بتلك الفتوح الكبرى من حدود الصين الى حدود الفرنج ، فان اليمن حققوا فى القديم فتوحا لا تقل عنها ان لم تزد . فهم فتحوا العراق وفارس وخراسان والهند والصين شرقا ثم مصر والمغرب والأندلس وأرض الفرنج غربا (٢) ؛

(١) أنظر جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ١ ص ٤٣ — ٤٤ ؛ سيدة الكاشف مصادر التاريخ الاسلامى ، ص ٢٧ ، ٢٨

(٢) أنظر أبو حنيفة الدينورى ، الأخبار الطوال ، طبعة القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢١ — ٢٤

وهذا ما كان موضع نقد ابن خلدون فى مقدمته (١) . وكان من الطبيعى ألا يقف اليمن بأمجادهم عند عصور الجاهلية . فواصلوا نسبة أمثال هذه الأمجاد لهم فى الاسلام ، كما فى «فتوح افريقية» . فلقد نسب فخر فتح المغرب فيه الى قبائل اليمن ، واختصت حمير منها — وهى قبيلة الملوك القدامى — بدور البطولة . وهذا قد يفسر أيضاً كيف انتسبت بعض الجماعات المغربية الكبيرة الى حمير مثل قبائل صنهاجة القوية التى غلبت على المغرب لمدد طويلة. فالنصوص تشير الى أن الصنهاجيين كانوا يفخرون بأنهم ، ورثوا ملكهم عن آبائهم حمير (٢) . واذا ما عرفنا أنه لا يوجد ذكر هام لقبائل اليمن ولا لحمير فى الحملات الأولى على المغرب ، مثل حملة عبد الله بن سعد بن ابى سرح التى يمدنا الكتاب بتفصيلات دقيقة عن تكوينها (٣) ، أدركنا أن أمجاد اليمن والحميريين هذه من صنع مؤرخيهم ورواتهم ودعاتهم . والحقيقة أنه كان فى ذلك تعويض لليمن عن بعض ما فاتهم فى صدر الاسلام ، كما كان فيه لإرضاء لشعورهم بأنهم أعرق العرب وأكثرهم أصالة .

وبذلك تكاملت عناصر قصة فتح افريقية المنسوبة للواقدى ، وتتكون من القائد (عقبة) وله دور غير فعال فى الجهاد ، والى جانبه الأمويون أصحاب الدولة وموقفهم سلبى أيضاً . أما أبطال الفتح فهم الهاشميون والمخزوميون والزبيريون ، والى جانبهم الحميريون وهم جمهرة المقاتلة . وفى الجانب المعادى هناك ملوك البلدان المختلفة بثرواتهم وكنوزهم العجيبة ، ومنهم من آمن برسالة الاسلام ومنهم من لم يؤمن ؛ والى جانبهم بناتهم ومنهن من افتتن بشباب العرب وسهلن لهم الفتح ، ومنهن من وقفن معاديات كيداً لهاتن الأخيرات . واقد وجدنا أن قصة فتح مصر والاسكندرية وكذلك فتح البهنسة والفيوم تحتويان على نفس العناصر ، وتشتركان فى نفس الصور ؛ ونفس «السيناريو» مع تغيرات طفيفة استلزمها الموقف . ويمكن أن نستنتج من ذلك أن الروايات

(١) ابن خلدون ، المقدمة طبعة التجارية . باب فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، ص ١٢

(٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٤ ؛ ابن عذارى ؛ طبعة بيروت ، ج ١ ص ٣٤٣

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ وتابع ؛ وأنظر مؤنس ، فتوح العرب فى المغرب ، ص ٨١

الثلاث نابعة من مصدر واحد . ونسبة هذه الكتب ـ في شكلها الراهن ـ الى الواقدى أمر يشوبه الشك ، وهذا متفق عليه . فالواقدى مؤرخ محدث ، من ذلك الرعيل الأول الذى أقام علم السيرة والحديث مثله مثل ابن اسحق وابن هشام ، رغم ما يرى به من ضعف الأحاديث ، وهذا أمر يشترك فيه مع ابن اسحق . وتقدير قيمة الواقدى الصحيحة ـ كمؤرخ ومحدث ـ تأتى عن طريق تقدير كتابه فى مغازى الرسول الذى وصل الينا سليما ، وكذلك فيما نقله عنه من الروايات ثقات كتاب السيرة والأحاديث مثل كاتبه ابن سعد صاحب الطبقات ، وما نقله المؤرخون الأوائل مثل ابن عبد الحكم والبلاذرى والطبرى ، وهى روايات تتسم بالطابع العلمى الصادق . هذا ولو أن بعض المؤرخين يضعف من روايات الواقدى التاريخية ـ كما ضعف المحدثون أحاديثه : فالطبرى يسبق الروايات التى ينقلها عنه بكلمة « وزعم الواقدى » فى أحيان كثيرة (١) . ولكن اذا كانت فتوح افريقية وفتوح مصر وفتوح البهنسة ، تتصف بتلك الصفة الأسطورية التى لا تتفق مع روايات الواقدى المعروفة ، فهذا لا يعنى أنها ليست له أصلا . فالمعروف أن الواقدى كتب فى مغازى هذه البلاد وفتوحها ، وينقل عنه معظم الكتاب. ونرى أن هذه الكتب للواقدى أصلا ولكنها تطورت الى الشكل الذى أصبحت عليه فى الظروف التى حاولنا تفسيرها . أما عن توقيت ذلك التطور فأمر صعب يتطلب الى جانب النظر فى كل المخطوطات ومعرفة تواريخ نسخها الصحيحة ، وجود نسخ منها من فترات متتالية مختلفة حتى يمكن معرفة الزيادات والحذف الذى كان يطرأ عليها .

ونستطيع أن نقرر ابتداء أن روايات الواقدى أخذت شكلها الأسطورى هذا فى وقت متأخر نسبياً بعد القرن السابع الهجرى (١٣ م) . والدليل على ذلك تلك الشخصيات التى يذكرها مخطوط فتح البهنسة مثل «سيدى أبو مدين»

---

(١) أنظر الطبرى على سبيل المثال ، أحداث الصراع بين العرب والروم : سنة ٥٢ (فزعم الواقدى ..) ؛ سنة ٩٢ عن فتح الأندلس (زعم الواقدى) وهذه الرواية لها طابع المبالغة وعدم الدقة : فملك الأندلس اسمه الاذريق ، وهو من أصبهان ، وزحف للحرب فى سرير الملك وعليه تاجه وقمازه .. الخ ..

الذى توفى فى أواخر القرن السادس الهجرى، و« سيدى أبو الحجاج الأقصرى» المتوفى فى منتصف القرن السابع . وهنا نعتقد أن انتشار حركة الطرق الصوفية ، واهتمام الناس والكتاب بحياة الزهاد والصالحين ، وعنايتهم بكراماتهم ومعجزاتهم — وهى سمة عصور الضعف والاضمحلال التى نقلت الناس من عالم الحاضر المؤلم الى عالم الخيال السحرى — ، كانت لها آثارها فى تطور الروايات التاريخية وحشوها بالخرافات والكرامات . ولما كان كبار الزهاد والصالحين هم النماذج المثالية فى أعين أهل هذه العصور ، وجب إدخال كثير من أبطال صدر الاسلام فى نفس « الطريق » . وهكذا نجد حشداً منهم من رجال السياسة والحرب والادارة فى كتب طبقات الصوفية . والمثل لذلك على بن أبى طالب وبنوه ، والزبير بن العوام وابناه عبد الله وعروه ، وطلحه بن عبد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيده بن الجراح ، وعبد الله بن عباس وغيرهم (١) . ولما دخلوا فى « الطريق» وجب أن تكون لهم أعمالهم الخارقة وكراماتهم كما تصورها الخيال الشعبى فى الروايات التى رأيناها .

والى جانب الأثر الصوفى الشعبى المتأخر ، تأثرت الرواية التاريخية هنا بأحداث تاريخية متأخرة كانت لها آثارها العميقة ،فى خيال الناس. ففى قصة فتوح افريقية نجد مراحل الفتح تسير من المهدية (سبيطلة) الى سوسه وسبيبة وشقبنارية وحيدره وقسطيلية وتبسة وقسطنطية وتنتهى عند المعلقة . ونلاحظ أن كثيراً من هذه المدن ليس لها ذكر ذو بال فى الفتوح الأولى ، أو ليس لها ذكر اطلاقا . فسوسة ليس لها ذكر الا فى حملة معاوية بن حديج الذى سير اليها عبد الله بن الزبير فاستولى عليها (٢) . وفى مخطوط فتوح افريقية استبدل بابن الزبير — كما رأينا — عبد الله بن جعفر . ولكنا لا نجد أية اشارة الى مغامرات نسائية كتلك التى حدثت فى سبيطلة . هذا ولو أن هناك ذكرا لامرأة من العجم التقت بعبد الملك بن مروان ، عندما غلد

(١) أنظر تراجم هؤلاء فى كتاب الطبقات للشعرانى .

(٢) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٢١ والهوامش .

عن الجيش فى غزوة ابن حديج – ولكن فى بنزرت وليس فى سوسة – فقرته وأكرمت مثواه ، فرد جميلها عندما ولى الخلافة (١) .

أما عن سبيبة فلا ذكر لها اطلاقا فى الفتوح الأولى رغم أنها كانت من القلاع القريبة من القيروان مثل جاولاء التى استولى عليها عبد الملك بن مروان. ولكن فتوح افريقية جعل من فتح سبيبة قصة جهاد طويلة أنجز العرب فيها كثيراً من الأعمال ، ولقوا فيها كثيراً من المتاعب : فالقوات المعادية التى بلغت ١٨٠ ألفا اصطدمت بقوات العرب التى بلغت ٤٠ ألفا بقيادة ابن جعفر بينما كان عقبة فى الخطوط الخلفية يقوم بحراسة النساء والبنات والأموال ومعه ٣٠ ألفا من أخلاط العرب . وعلى غير العادة أصيب العرب بصدمة عنيفة عندما فاجأ الأعداء عقبة «وأخذوا النسوة عن آخرهم وملكوهم » (٢) . والحقيقة أن أهم الأحداث التى عرفتها سبيبة فى تاريخ المغرب العربى ، هى الوقعة الكبيرة التى حدثت فى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م بين العرب الهلالية من بنى رياح وبين الصنهاجيين من بنى حماد ، والتى انتصر فيها الهلالية . وكانت وقعة سبيبة هذه حاسمة اذ أكدت استقرار الهلالية بالمغرب ، وجعلت بنى حماد ينقلون عاصمتهم من القلعة الى مدينة بجاية . والحقيقة هنا تخالف ما فى القصة اذ انتصر العرب على خصومهم . أما الوقعة التى تذكرنا بهزيمة العرب فى سبيبة وتركهم نساءهم وذراريهم أسرى بين أيدى الأعداء كما فى القصة فهى الوقعة التى انهزم فيها العرب الهلالية أمام قوات الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن على فى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٥١ م ، ولكن فى سطيف من أرض الجزائر وليس فى سبيبة من أرض تونس . ولقد قسم عبد المؤمن بن على أموال الهلالية على رجاله ونقل نساءهم وذراريهم الى المغرب الأقصى ولم يردهم الى ذويهم الا بعد أن قبل هؤلاء الاستيطان فى البلاد المراكشية(٣).

---

(١) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٢٥ والهامش ١

(٢) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٣٠ خلف .

(٣) ابن الأثير ، أحداث سنة ٥٥٤ ؛ ج ١١ ص ١١٠ – ١١١ – وأنظر G. Marçais, Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe ss., pp. 148 — 150.

وبناء على ذلك نعتقد أن قصة فتوح سبيبة تحوى بذوراً من ملحمة الهلالية فى المغرب ، وكذلك الأمر بالنسبة لفتح حيدرة ، والمعلقة . ففيما يختص بحيدرة لا نجد مدينة فى المغرب تعرف بهذا الاسم . ولكنا نعرف جبلا يقع على مسيرة يوم من القيروان يعرف بجبل حيدران . ونظن أن اسمه تغير فى قصتنا الى حيدرة — وهذا أمر ليس بغريب ففى كتاب ابن الأثير نقرأ الاسم جندران (١) . وجبل حيدران هذا شهد أول الأحداث الهامة فى ملحمة الهلالية . وذلك أن العرب من بنى رياح حققوا بجواره انتصارين هامين على الصنهاجيين أصحاب القيروان ، رغم قلة عدد العرب وكثرة خصومهم . ولقد تغنى شاعر بنى هلال بهذا النصر فقال :

ثلاثة آلاف لنا غلبت لهم ثلاثين الفا أن ذا لنكال(٢) .

وفيما يتعلق بالمعلقة لا نجد بلداً يحمل هذا الاسم فى المغرب . والذى عرفناه هو أنه بعد انهزام بنى حماد أمام الهلالية فى وقعة سبيبة نقل الحماديون عاصمتهم من القلعة — الموجودة فى الداخل والتى كانت تحت رحمة الهلالية — الى مدينة بجاية الساحلية . وبجاية فى منطقة جبلية وعره يصعب الوصول اليها ، ولهذا السبب عرفت بأنها معلقة (٣) ، ونعتقد أنها المقصودة فعلا رغم وجود قصر من قصور قرطاجنة يعرف بالمعلقة (٤) .

كل هذه قرائن يمكن أن تؤيد ما نريد أن نذهب اليه من أن قصة «فتوح افريقية» — فى آخر أشكالها وكما رأيناها — تحوى أيضاً بذور قصة الهجرة الهلالية الى المغرب التى دارت خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين . والحقيقة أن ملحمة الهلالية التاريخية فى المغرب حوت عناصر شبيهة بعناصر فتوح افريقية . ففيها العرب الهلالية ومنهم بنوسليم ، وهؤلاء اشتركوا فى أول

---

(١) ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٤٢ ج ٩ ص ٢٣٦

(٢) نفس المصدر .

(٣) أنظر كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، طبعة جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ١٣٠ (وبجاية معلقة فى جبل وقد دخل فى البحر يسمى سيون) .

(٤) كتاب الاستبصار ، طبعة الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ١٢٢ والهامش ١

فتح لافريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان لهم ٤٠٠ رجل فى غزوة سبيطلة (١) . وفيها الحميريون رغم انهم كانوا فى صفوف الخصوم أى الصنهاجيين الذين انتسبوا الى ملوك حمير من اليمن ، وفيها الروم أو الفرنج وهم الصقليون الذين كانوا يهددون سواحل المغرب فى ذلك الوقت والذين حاربهم الهلالية فى أكثر من موقعة كما حدث فى المهدية (٢) . وفيها بنات الملوك من الأميرات الصنهاجيات اللاتى قمن بأدوار سياسية هامة مثل السيدة أم ملال عمة المعز بن باديس (٣) أو اللاتى أعطين كزوجات لزعماء بنى هلال اكتسابا لودهم ودفعا لشرهم (٤) . أما عن كنوز المغرب على أيام الصنهاجيين فلاشك أنها بهرت الهلالية كما سبق أن بهرت خيرات وكنوز البلاد عرب الفتوح الأولى ، فالكتاب يبالغون فى وصف ثراء المغرب وغنى الصنهاجيين الى درجة كبيرة : فالأمراء كانت لهم عمائم مرصعة كالتيجان ، وجهاز عرس بعض الأميرات بلغت قيمته الف ألف دينار ... الخ (٥) .

وبطبيعة الحال هناك أحداث أخرى فى « فتوح افريقية» يستشعر منها الاشارة الى أحداث هامة وقعت فى تاريخ المغرب خلال العصور المختلفة . ولكن أهم عناصرها هى الخاصة بفتوح العرب الأولى التى امتزجت بفتوح عرب الدفعة الثانية الكبرى ، وهم عرب بنى هلال . ولقد امتزجت عناصر الحدثين التاريخيين الهامين اللذين أثارا الخيال الشعبى ، واتخذا شكلهما الأسطورى فى الظروف التى حاولنا تفسيرها . وآخر ما نريد أن نشير اليه هو أننا نرى أن هذه الرواية الأسطورية كانت مرحلة هامة فى تطور أحداث المغرب التاريخية الى أسطورة شعبية لحما ودما هى ملحمة الهلالية المعروفة بقصة

---

(١) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٨١ هامش ٢

(٢) ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٨١ ، ج ١٠ ص ٦٨

(٣) ابن عذارى ، طبعة ليدن ١٩٤٨ ، ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢

(٤) ابن خلدون ، الخبر عن دخول العرب من بنى هلال وسليم المغرب ، ج ٦ ص ١٤ - ١٥ ؛ والترجمة الفرنسية ، ج ١ ص ٣٤ ، ج ٢ ص ٢١ والهامش .

(٥) الاستبصار ، ص ١٢٩ ، ابن عذارى طبعة ليدن ١٩٤٨ ، ج ١ ص ٢٧٢ ؛ ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٧٠ ، ج ١٠ ص ٤٤

« أبو زيد الهلالى » (١) . فالحقيقة أن عناصر القصة الشعبية تشترك مع قصتنا فى كثير من أوجه الشبه : ففى صفوف العرب الهلالية نجد رئيسهم السلطان حسن يقف موقفاً شبه سلبى ، بينما البطل الأكبر هو أبو زيد سلامة وإلى جانبه عدد من فوارس زغبة ورياح وسليم . أما العرب الحميريون فهم الزناتية وزعيمهم الزناتى خليفة بن سميح بن حمير وعدد من الأبطال ، وأما بنات الملوك فهن فى الجانبين جميعاً بدلاً من الجانب المعادى فقط : فنجد الجازية أخت السلطان حسن فى جانب الهلالية ومعها بنات العرب الجميلات فى ملابس الحرير وحلى الذهب والفضة ، وفى جانب الزناتية نجد سعده بنت ملك العرب التى فتنها مرعى الإبل ، وهو فى سجن أبيها . وأخيراً هناك اليهود والنصارى أيضاً فى صفوف الخصوم (٢) .

هذا فيما يتعلق بالعناصر الرئيسية أما عن التفصيلات فهناك أوجه شبه أيضاً . فالسند فى قصة الهلالية هو « الراوى » الذى يتكرر ذكره كل فترة أو مقطوعة شعرية . ثم نلاحظ عنصر التهويل كوصف الفارس بالجبل ومقارنة ارتطام الفارسين بارتطام جبلين ، وضربات السيوف والرماح التى تشق الحنوب وتخرق الصدور والظهور ، ثم المغامرات النسائية التى سهلت فتح أبواب الحصون الموصدة .

هذه العناصر وتلك التفصيلات التى تتوالى وتتكرر فى شكل رتيب ، وتكون عناصر ملحمة الهلالية الشعبية نجد أشباهها فى فتوح افريقية والهند ومصر التى كانت موضوع بحثنا ، وهذا يؤيد ما أردنا أن نذهب اليه من أن كتب الواقدى العلمية أخذت تتطور مع مرور الوقت حتى انتهى بها الأمر الى الشكل الذى وجدناه عليها الآن ، وأن هذا الشكل هو الذى استمد منه أصحاب الملحمة الهلالية الشعبية عناصر قصتهم .

---

(١) عن السيرة الهلالية أنظر دراسة الدكتور عبد الحميد يونس (الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى) القاهرة سنة ١٩٥٦ . ومقاله عن السيرة « بنى هلال » فى مجلة تراث الانسانية ، المجلد الأول ٤ ، ص ٣١٧ — ٣١٩ .

(٢) أنظر سيرة العرب الجازية (وهو مختصر لقصة الهلالية) ، طبع الاسكندرية (الشمرلى) بدون تاريخ : عن السلطان حسن أنظر على سبيل المثال ص ٥ — ٦ — ١٦ ؛ وعن ابى زيد الهلالى ص ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٢٣ ؛ وعن الحميريين الزناتية ص ٣٦ ، ٣٩ ، ٥٦ ؛ وعن الجازية أخت السلطان حسن وبنات العرب ص ٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٣ ، وعن سعدة بنت ملك العرب وبنات زناته ص ١٤ ، ١٥ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥١ ، ٨٩ ، ٩١ ؛ وعن ست الأهل والدة سعدة ص ١٠٣ — ١٠٤ ، وعن اليهود والنصارى اعداء الهلالية ، ص ٤١ ، ٤٣ .